دقات على باب الغربة

عبد الحميد السنبسي

[دقات على باب الغربة]

رحلات - (عبد الحميد السنبسي)

الطبعة الأولى: نوفمبر 2015.

تصميم الغلاف: السيد العطافي

تدقيق لغوي وتنسيق: إسلام علي

المدير العام : رباب الشهاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **2015/20857**

رقم الإيداع الدولي: **978-977-6534-02-5**

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing





دقات على باب الغربة

(رحلات)

عبد الحميد السنبسي



هذا الكتاب من أجلك أنت

فقط اقرأ واستمتع .

هذه الصفحة تركت بيضاء عمدًا.

إن ظننت أن العلم مكلف، جرِّب الجهل.

ذات يوم كنت أتجول في مكتبة جرير ولفت نظري كتاب من القطع الصغير، قليلة صفحاته، طريفة كلماته، عنوانه (كلمات مرحة)، وبرغم الخصم الموجود على الغلاف فقد كان سعر الكتاب مازال مرتفعًا، وبعد أن تصفحت بضع صفحات منه قررت ألا أشتريه لارتفاع سعره، وقبل أن أعيده إلى الرف قرأت فيه حكمة جعلتني أتراجع تقول:

"إن ظننت أن العلم مكلف، جرِّب الجهل."

وهذا كتاب:

تَفكره عِلم ومنطقه حكم ⁂ وباطنه دين وظاهره ظرفُ

***

تجد في هذا الكتاب بعضا من الروايات التاريخية التي أذكرها عرضا لكنني قد لا أذكر في أي كتاب قرأتها لذلك لا يعوّل عليه في استثبات تلك الروايات لأنني لم أكلف نفسي عناء إعادة النظر في تلك الكتب التي علا معظمها الغبار لكي أضع اسم الكتاب والكاتب، والناشر والمحقق، كما يفعل الباحثون الذين قلما تجد أرقامهم متطابقة مع ما يقتبسون منه، استثنيت من ذلك ما ورد من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أو آيات من الذكر الحكيم أو بعض مواقع الشبكة.

كما تجد في هذا الكتاب نقدا لاذعا لبعض الأصدقاء والمعارف -والنقد عندي لا يكون إلا لاذعا فإذا كان فاترا أصبح كالنكتة السمجة والملق المرفوض- وكلما كانت الرابطة أقوى واللَّحمة أشد وصدر المنتقد أرحب كان نصيبه من النقد أكبر. وقد كان الشيخ عبد العزيز البشري -رحمه الله- صديقا لزيور باشا ناظر النظار وكان لا يسلم من صواعق لسانه ولا طعنات قلمه إلا قليلا. على أنني لم أذكر من مثالب القوم إلا بعض ما علمت وقد ستر الله عليهم الكثير عني رحمة بهم، وما ذكرته عن مناقب البعض ممن عرفتهم فليس فيه مجاملة لأحد إنما أردت أن أبيِّن للناس ما ووري من حسناتهم وليعلم الناس أن الأحدوثة الحسنة تبقى لهم ذخرا في الدنيا ومثاراً لطلب الرحمة والغفران في الآخرة، ولحث الناس على الاقتداء بهم، وفيه أيضا ما قد يعين على فهم أفضل للناس وتصرفاتهم

وخلجات نفوسهم. ولا يعني ما تشابه من أخلاق القوم مع بعض من تعرفون من شخصيات أنني قصدتها بعينها وإنما يقع الفعل على فاعله.

يقول الأستاذ العقاد "الكتب كالناس، منهم السيد الوقور، ومنهم الكيّس الظريف، ومنهم الجميل الرائع والساذج الصادق والأريب المخطئ، ومنهم الخائن والجاهل والوضيع والخليع، والدنيا تتسع لكل هؤلاء، ولن تكون المكتبة كاملة إلا إذا كانت مثلا كاملا للدنيا.

يقول لك المرشدون اقرأ ما ينفعك، ولكني أقول بل انتفع مما تقرأ، إذ كيف تعرف ما ينفعك من الكتب قبل قراءته!؟

إن القارئ الذي لا يقرأ إلا الكتب المنتقاة كالمريض الذي لا يأكل إلا الأطعمة المنتقاة، يدل ذلك علي ضعف المعدة أكثر مما يدل علي جودة القابلية..

اعلم أن من الكتب الغث والسمين، وأن السمين يفسد المعدة الضيقة، وأنه ما من طعام غث إلا والمعدة القوية مستخرجة منه مادة غذاء، ودم حياة وفناء، فإن كنت ضعيف المعدة فتحامَ السمين كما تتحامى الغث، وإن كنت من ذوي المعدات القوية فاعلم أن لك من كل طعام غذاء صالحا" انتهى كلام الأستاذ.

وأنا أعتقد أنني إذا قرأت الكتاب واستفدت منه حكمة واحدة أو تعلمت منه شيئًا جديدًا واحدًا لم أعرفه من قبل فقد أعْظَمَ النعمة وَأجْزَلَ المنَّة.

وبمناسبة الحديث عن العقاد، هو كاتب ومفكر أكثر من رائع يقول عنه أنيس منصور: "له معدة لا تهضم الماء، لكن له عقل يهضم الزلط".

يطرق أمورا تظن -أو أظن أنا -لأول وهلة أنها من فرط بساطتها سهلة لكنها لا تتاح إلا للعباقرة أمثاله وهي السهل الممتنع كما يقولون. وتراه يستنبط الفكرة تلو الفكرة وأقول في نفسي كيف غابت عني!؟ ولما كان الشيء بالشيء يذكر يقول الجاحظ في تعريفه للبلاغة أنها "الكلام الذي إذا سمعه الجاهل ظن أنه يحسن مثله"، وقد ظننتُ ذلك كثيرا.



قرأت للعقاد (عبقرية عمر) مرات ومرات، وفي كل مرة أخرج منها بجديد. مشكلتي مع العقاد وأظنها مشكلة آخرين أنه لا يتخير اللفظ الأنيق للفكرة الرائعة بقدر ما يهتم كثيرا بدقة اللفظ، وقد وضعه الرافعي على السّفود (سيخ الشيّ) ظهرا لبطن بسبب لغته الجافة، وأسباب أخرى، وفِكْر العقاد كثمرة الجوز ذات القشرة الصلبة ينبغي أن تجهد نفسك في كسرها لتحظى بما فيها، وأنا أعتقد أن العقاد لو استعمل لغة المنفلوطي مثلا أو أسلوب المويلحي في كتبه لبَزَّ كثيراً من الكتاب والشعراء المعاصرين له، ولكان له فضل السبق عليهم لو أنه أوتي طلاوة ألفاظهم وحلاوتها مع ما أوتي من قدرة على التحليل العميق والبصر بمواقع الجمال، علاوة على إراحة طلاب الثانوية العامة من الشكوى. ليس هناك ترتيب معين لِفقَرِ الكتاب وإنما كُتبت كيفما اتفق دون ترتيب زمنيّ أو موضوعيّ ودون قصد ظاهرٍ أو خفي، فقط اقرأ واستمتع.

كامل بك

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ** وعاش قوم وهم في النفس أموات

كان عضوا بمجلس نواب ما قبل ثورة ١٩٥٢ وهو حائز لدرجة البكوية، وله صورة في مجلس النواب يوبِّخ رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا نشرت في صحف تلك الأيام واحتفظ هو بنسخة منها، وهو كريم الشمائل لطيف المعشر لا يَشبع من حديثه جليسِه، يلاطف الصغير ويوقِّر الكبير، قدَّم لبلدته خدمات جُلّى، من بينها مستشفى كبير وُضع أساسه قبل ثورة ١٩٥٢ ومدرسة إعدادية بعدها، بالرغم من أن نيابته كانت عن دائرة أخرى.

كانت له أملاك واسعة جارت على بعضها قوانين الإصلاح الزراعي بعد الثورة، كما جار هو على جلها بالبيع أو قل بالهبة لأنه كان يبيعها بثمن بخس.

كنتُ في الصف الأول الإعدادي في بداية السبعينيات يوم أن كُلِّفت الذهاب إليه في يوم شاتٍ شمسه حيية خجولة لكنها تبعث الدفء في الأوصال، وبعض قطع السحاب الأبيض الناصع منثورة في جو السماء كالقطن المندوف تُواري خلفها وجه الشمس أحيانا، وفي الهواء نسمة باردة منعشة تحمل كثيرا من عبق أشجار الليمون وفاكهة الشتاء، ذهبت إليه في فيلته في منطقة قريبة من شاطئ النيل يطلق عليها -تجاوزا- (الجزيرة)، والتي يقيم فيها عندما يكون في البلدة. الطريق إلى الفيلا

ترابي غزير يمر عبر الزراعات وعلى أحد جانبيه ترعة صغيرة لا تمتلئ بالمياه إلا فترة المناوبة، وبعد أن تنقضي تلك المناوبة لا يتبقى في هذه الترعة من المياه إلا أوشالا تكون مرتعا للصبية إذ يأمنون الغرق ويصطادون فيها البَلَم (صغار السمك)، كانت هذه الفيلا عتقى مقامة بالحجر -مازالت قائمة حتى الأن- وسط حديقة تلفها أشجار الفاكهة والموالح غير المشذبة تبث في أجوائها عبق زهورها التي تملأ النفس بهجة وراحة، وبجوارها ماكينة ري ارتوازية قديمة لها صوت عميق رتيب، لم أذق في حياتي ماءَ أعذب من مائها، تروي أراضيه وأراضي جيرانه التي اشتروها منه وبعضهم استوهبها.

يحيط بالحديقة والفيللا جدار عتيق عريض من الطوب اللبن متهدم في بعض نواحيه، وما تبقى منه متماسك بالرغم من قدمه، يعلو قامة الرجل ببضعة أشبار فقط، يكاد الرجل طويل القامة أن يرى ما بالداخل إذا اشرأب قليلا، ويعلو هذا السور سياج من جريد النخل بشوكه (يسمى هذا الشوك [السِلاع]) مغروسا في قمة الجدار ليمنع الثعالب والكلاب من تخطي السور؟

الحديقة والفيلا من معالم البلدة القديمة التي تبين عراقتها والتي يستدل بها الناس على ما حولها من أراض أو منازل للقاطنين حولها، وقاها الله غوائل الزمن وعاديات الأيام.

دفعت بكلتا يديّ وإحدى قدميّ مصراع الباب الخشبي الكبير المتهالك فانبعث له صرير عال يكاد يوقظ الموتى، ودلفت إلى ممر ترابي ضيق تغوص الأقدام فيه يؤدي إلى شرفة الفيلا والتي تعلو الأرض ببضع

درجات، وُضِع عليها مقعدين من أنتريه أسيوطي قديم تبدل لونه مرارا حتى لا تعرف أي لون كان الأصلي، وطاولة صغيرة. وجدته جالسا على أحد المقعدين يتصفح إحدى الجرائد فلما رآني هش وبش وصافحني مصافحة حارة كما لو كان يعرفني معرفة وثيقة ووجهه يطفح بالبِشر والترحاب. بعد أن التقطتُّ أنفاسي وذهبتْ رهبة اللقاء، سألني: "من أنت؟ وابن من؟"

زاد ترحيبه بعد أن أجبته وأجلسني على المقعد المواجه له وأمر أحد العمال عنده واسمه حجاج (رحمه الله) أن يأتي لي بكوب من عصير الليمون.

تبسّط معي في الحديث عن الدراسة والمدرسين، ثم توقف فجأة وسألني سؤالا مباغتا: "أتدري أن أباك هو ابن خالتي؟" قلت لا أعلم، فبدأ يسرد عليّ تفاصيل هذه القرابة -التي كنت أعلمها- ولكني أنِسْت بحديثه وطلاوته.

قدَّم لي حجاج كوبا من عصير الليمون الطازج المحلى. كان أنيقا ونظيفا.

ثم سألني ماذا أريد؟

كنت قد كُلِّفت بأن أسأله بعض الأوراق الرسمية المودعة لديه وتخصنا، فأجابني إلى طلبي وأحضرها.

كانت هذه أول مرة أرى فيها مجلة (آخر ساعة) -وهالني حجمها الكبير- ومجلة المصور وسط أكداس من الصحف. كان بائع الصحف الكهل العم رزق بالرغم من شيخوخته وضعف بصره يتجشم مشقة الذهاب إليه كل ضحى خلال فترة إقامته في الجزيرة ليزوّده بالصحف اليومية والمجلات،

وقد كان -رحمه الله- من القلائل الذين يتابعون الصحف في البلدة في هذه الحقبة.

لما رآني أطيل النظر إلى الصحف والمجلات قال لي مبتسما وهو يومئ بالموافقة: "أتريدها؟" فهززت رأسي خجلا بالإيجاب، فطواها وأعطانيها، ثم نادى على حجاج وطلب منه أن يزوّدني ببعض ثمار الليمون من الحديقة آخذها معي عند رحيلي، ولبّى حجاج الطلب باسما، وخرجت أنوء بحملي من الصحف والمجلات، والليمون يملأ حجر جلبابي القصير، وذكرى لقاء مع رجل لا يبرح ذاكرتي أبدًا معبّقا بطعم الليمون ورائحة زهوره، وأريحية رجل من زمن كريم.

***

بعد هذا اللقاء بزمن قصير، كنت ألعب مع أقراني على أحد الجسور المقامة على أحد مشروعات الري، والتي أقيمت بالتوازي مع إنشاء السد العالي، لتحويل مصر من ري الحياض إلى الري الدائم. وبالمناسبة، فإن مشروع إنشاء شبكة الري هذه من المشروعات العملاقة، والتي أعتقد أنها لا تقل أهمية عن مشروع السد العالي ذاته؛ حيث تم إقامة شبكة من ترع الري الرئيسة والفرعية في كامل الجمهورية، وكان الحفر يتم بنفس طريقة حفر قناة السويس، بالفأس والمقطف. حدث أنهم شقوا مدرستنا الابتدائية إلى نصفين، واستولى مشروع الري على فنائها الأمامي الرحب (تركت في نفسي حسرة حتى الآن). كان بعض الأهالي يعترضون على استيلاء الري على أراضيهم وشق الترع خلالها، ولكن الدولة كانت صارمة في التنفيذ حتى انتشر حينها كاريكاتير عن عبد الناصر فيما معناه

أنه أمر لو اعترض المشروع ذراعه فاقطعوه. وكنا نرى حفارّو الترع وكأنهم أبطال القصص الأسطورية، بقاماتهم الفارعة، وعضلاتهم المفتولة، وبشرتهم السمراء المعروقة اللامعة كالأبنوس المصقول. وقد كانوا يفرحون جدا عندما نعطيهم أرغفة الخبز التي كانت توزَّع علينا في المدرسة من ضمن برنامج التغذية المدرسي، وكانت عبارة عن رغيف خبز أحمر كبير مستدير كقرص الشمس، لكننا لم نكن نُسيغه فكنا نعطيه لهؤلاء العمال. كان أحد هؤلاء العمال اسمه فرعون، وكان يتباهى بأنه يحمل أربعة مقاطف ملأى بالتراب دفعة واحدة، وكان يقوم بحركات بهلوانية كلما ألقى إليه أحدنا بالرغيف، وكان أكثرهم حظا من أرغفة الخبز بسبب حركاته الطريفة.

عودة إلى ما كنا فيه من لعب الصبية على هذا الجسر، فقد حدث أن مرّ بنا كامل بك فنادانا، وجلس بيننا متلطفا وسأل كل واحد منا عن اسمه واسم أبيه وفي أي صف دراسي، ونصحنا بالاهتمام بالدروس، ثم وضع يده في جيبه وأخرجها ملأى بالنقود المعدنية ونقد كل واحد منا قرش صاغ كامل، وانطلقنا فرحين؛ فقد كان هذا القرش في نهاية الستينيات مصروف يوم لطفل.

أحببت هذا الرجل جدا. وفيما بعد في منتصف السبعينيات، وفي أحد أيام الشتاء، وكان قد أسن وبدت عليه آثار الزمن وأمراض الشيخوخة، قمت بزيارته في بيته في قنا، وكان يقيم في بيت له طابع العراقة في شارع السوق الفوقاني. دخلت إليه من الباب الأمامي إلى باحة المنزل، على يسارها درج رخامي واسع يعلوه بهو فسيح له أعمدة خشبية تقشَّر طلاؤها وبدا الخشب من شقوقها. وجدته جالسا على مقعد خشبي أنيق

في شمس الصباح، حيّاني جالسا وبدا عليه السرور، وطلب من زوجته الوفية الكريمة إعداد الشاي، وأصر عليه بالرغم من اعتذاري المتكرر. كانت مازالت فيه الأريحية والكرم وحسن الاستقبال بالرغم من تقدم العمر وآثار السنين التي كانت بادية على محياه. كان هذا آخر العهد به رحمه الله وطيّب ثراه.

***



عبد الحميد

يظن أنه قتل الأشياء بحثا، وأنه أوتي من كل علم طرفا. يقرأ في كل شيء، بينا تراه يطالع المعلقات، يتركها ليقرأ في نظرية النسبية، وهو لا ينجز مشروعا بدأه إلا بعد مشقة كبيرة. أفكاره كثيرة، وما يرى النور منها قليل، بليد اجتماعياَ؛ عنده العكوف على كتاب أفضل من ملاقاة الأغراب، لذلك يعتبره بعض من لا يعرفون خصاله أنه متعال، والحقيقة أنه غير ذلك. اشتكى يوما ما صداعا شديدا في دماغه على غير العادة، فلما زار طبيب المخ والأعصاب، وبعد توقيع الكشف عليه، قال له الطبيب "اطمئن.. لم أجد في دماغك أي شيء".

قلما سمع الخطيب في صلاة الجمعة يتحدث عن نقيصة إلا وظنها فيه.

***

أقوال..

إن كل بيتٍ من الشعر أو عبارةٍ من النثر بحاجة إلى شرح وتفسير لا يستحقان الشرح والتفسير.

-فولتير

***

الدكتور عبد الرازق السنبسي

يقول الأستاذ العقاد أنه إذا اختلف الناس على شخص، فمنهم من يرفعه إلى عنان السماء، ومنهم من يهبط به إلى الوهاد، فاعلم أنه عظيم وأنا أعتقد بصحة هذا القول؛ لأن اختلاف الناس يعني أن الرجل لم يك خاملا، وإنما أتى من الأفعال ما يعجب أقواما ويُغضب آخرين.

صاحبنا طويل القامة، مرفوع الجبين، عظيم الهامة، ذو صوت جهوري عميق، تأخذك طلعته وقامته المهيبة لأول وهلة كأنه فارس قد شق عباءة التاريخ، وقفز من قرونه السحيقة إلى عصرنا الحاضر. غزير الثقافة، واسع الاطلاع، دمث الخلق، لين العريكة، ذو ذكاء اجتماعي فطري صقله بالعلم والمعرفة، زكّته أصوله؛ فقد كان أبوه عميدًا لعائلة الأفندي، ووالدته من ذرى بيوت آل بدران، فكان الفرع مثل الأصل، وكانت عائلة الدكتور أرستوقراطية عريقة أدمنت السلطة والنفوذ في بر مصر. اشتغل بالطب ردحا من الزمن، وترقى حتى أصبح وكيلا لوزارة الصحة، وكانت له عيادته الخاصة التي كانت لا تدر عليه شيئا يذكر؛ فقد كان معظم روادها من الأقارب والمعارف والأصدقاء، وكان يستنكف أن يتقاضى منهم الأتعاب، فكان يأمر موظف العيادة بإعادة قيمة الكشف إليهم لدى خروجهم. أثمرت هذه الأريحية وهذا الكرم ثمارهما، بالإضافة إلى علاقاته المتعددة بذوي الشأن في ربوع البلاد المجاورة، عندما جرفته أمواج السياسة إلى بحرها المتلاطم، فكان يحصد الأصوات حصدا، وأصبح عضوا بمجلس النواب. وقد استمرت عضويته مدة تزيد على ربع القرن، وله في كل بلدة صديق. كان صاحبنا عزيز النفس، لا يطلب شيئا لذوي

دائرته إلا ممن يرى فيهم أهلا لمسألته، ولم يك يُرى على أبواب المحافظين أو الوزراء لمسائل خاصة.

ذات يوم جمعتني الصدفة بأحد الأطباء الكبار في مستشفى الأقصر الدولي، وجاءت سيرة الدكتور عبد الرازق عفو الخاطر، فقال الرجل مترحما عليه: "لقد كان أسدًا"، وروى أنه في لقاء جمع لفيفًا من الأطباء على رأسهم الدكتور عبد الرازق بمحافظ قنا البهنساوي، وتركهم المحافظ في الاستقبال فترة طويلة، ولما خرج إليهم بدا متأففا ولم يقابلهم باللياقة الواجبة، فقام الدكتور بقامته الفارعة والشرر يتطاير من عينيه وبادره مؤنبا: "نحن لسنا تلاميذ في مدرسة يا سعادة المحافظ، وما كان لك أن تتركنا طوال هذا الوقت". احتوى المحافظ غضب الدكتور ملطّفا من حدته ومعتذرا له وللأطباء، ومر الموقف، لكنه ظل محفورا في الذاكرة؛ فقد رفع من أسهم الأطباء لدى المحافظ، وأصبح يعاملهم بالاحترام الواجب فيما بعد.

يدّعي قالوه أن دائرته لم تحظ خلال نيابته بفائدة من وجوده في المجلس إلا ما سقط من المتاع، أو ما توافق مع سياسة الدولة ونُسب إليه عَرَضًا، حتى كان مدراء المديريات يصفونه بالنائب المحترم لقلة طلباته، في الوقت الذي كان باقي النواب لا تنتهي طلباتهم وتوصياتهم لأهاليهم التي كانت -للحق- لا تتم مجانا في الغالب الأعم، وكانوا يمارسون كل وسائل السياسة كما يفهمونها من تجارة بالحجر والبشر وتوقيعات المسئولين.

ويدّعي منتقدوه أنه قد أوتي من كل شيء حظا، إلا السياسة. والحقيقة أن هذا الفهم مغلوط؛ حيث أن مفهومهم للسياسة غير ما يعتقده الرجل؛ إذ يترفع عما قد يخوض فيه سواه، وهو لا يعِد إلا بما يستطيع، ويعتد بنفسه أيما اعتداد، في حين لا يرى النواب بأسا في أن يستجدوا الخدمات من الوزراء.

كما يزعمون أيضا أنه لم يستفد منه إلا الدائرة الضيقة جدًا من عائلته الأقربين بالتعيين في بعض الوظائف الحكومية.

بالرغم مما سبق، كانوا يعترفون أن هذا الرجل يتمتع بحضور قوي وشخصية ودودة وسلوك راق، وكان أهالي العائلة الكبيرة يتحمسون لنجاحه حبّا فيه، ويخوضون المعركة الانتخابية معه بكل شغف. وبعض البسطاء كان ينفق من قوت يومه متنقلا من قرية إلى أخرى، ومن بندر إلى بندر داخل الدائرة، يدعو له من يعرف ومن لا يعرف متمنيا نجاحه في الظفر بالمقعد، كأنه سوف يجعلهم وزراء أو في أقل القليل سوف يعيّن أبناءهم في الحكومة، وكما لو كان بينه وبينهم اتفاقا سحريا غير مكتوب؛ لأنه وبدون أي أسى أو خيبة أمل من جانبهم، تنتهي علاقتهم به بمجرد إعلان النتيجة وفوزه بالمقعد، ودوران كؤوس المشروبات في الساحة العتيقة، إلى أن يحين موعد الانتخابات التالية، وتدور الساقية من جديد. كان الرجل يتمتع بسمعة طيبة تردد صداها في كافة المدن والقرى المجاورة، بل تخطاها إلى المحافظات المجاورة؛ فقد كان مجبولا على الاحترام والذوق الرفيع والثقافة العالية. لم يرشُ ولم يرتشِ طيلة حياته، حتى وإن كانت له مصلحة شخصية؛ فقد كان يرفض الرشوة رفضا قاطعا، في الوقت الذي كانت فيه الرّشى سياسة عامة يكاد يكون تاركها

كتارك الصلاة. وقد بلغ من دهاء الساسة في الحزب الوطني أن يزيّنوا بعضا من دوائرهم بالأعيان نظيفي الوجه واليد واللسان، وكان هو من أولهم. وقد نشر لأهله سمعة طيبة مايزال أريجها باقيا.

سيذكرني قومي إذا جد جدهم ⁂ وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

***



زيور باشا

يصف الشيخ عبد العزيز البشري زيور باشا ناظر النظار وكان صديقا له:



"أما شكله الخارجي، وأوضاعه الهندسية، ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية، فذاك كله يحتاج -في وصفه وضبط مساحاته- إلى فن دقيق، وهندسة بارعة. والواقع أن (زيور باشا) رجل -إذا صح هذا التعبير- يمتاز عن سائر الناس في كل شيء.. ولست أعني بامتيازه في شكله المهول، طوله ولا عرضه، ولا بُعد مداه؛ فإن في الناس من هم أبدن منه، وأبعد طولا، وأوفر لحما؛ إلا أن لكل منهم هيكلا واحدا، أما صاحبنا فإذا اطلعت إليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلَّف من عدة مخلوقات، لا تدري كيف اتصلت، ولا كيف تعلق بعضها ببعض، وأنك لترى بينها الثابت، وبينها المختلج، ومنها ما يدور حول نفسه، ومنها ما يدور حول غيره، وفيها المتيبس المتحجر، وفيها المسترخي المترهل. وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعافها إلى الأمام شعبة طويلة، أطل من فوقها على الوادي رأس فيه عينان زائغتان، طلة من يرتقب السقوط إلى قرارة ذلك المهوى السحيق.

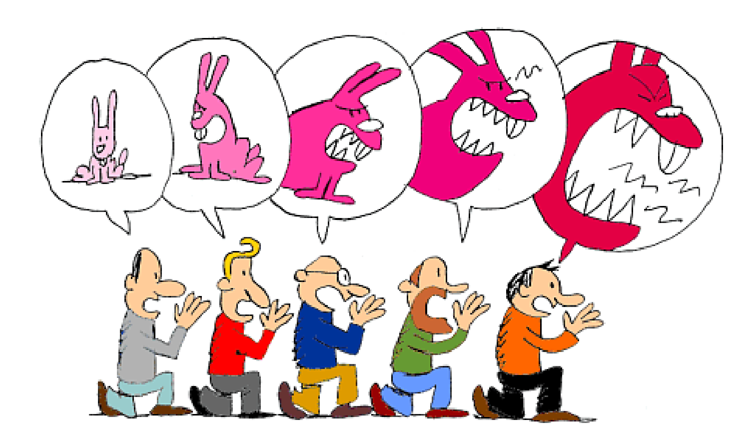
وإنك لتجد أناسا يصفون (زيور) بالدهاء وسعة الحيلة، في حين تجد آخرين ينعتونه بالبساطة، وقد يتدلون به إلى حد الغفلة، كما تجد خلقا يتحدثون بارتفاع خلقه وتنزهه عن النقائص، إذ غيرهم ينحطون به إلى مالا تجاوره مكرمة، ولا يسكن إليه خلق محمود؛ كذلك (زيور) عند

الناس، مجموعة متباينة متناقضة، متشاكسة؛ فهو عندهم كريم وبخيل، وهو شجاع ورعديد، وهو ذكي وغبي، وهو طيب وخبيث، وهو وطني حريص على مصالح البلاد، وهو مستهتر بحقوق وطنه يجود منها بالطارف والتلّاد.

كل أولئك (زيور)، وكل هذا قد يضيفه الناس إلى (زيور)، فلا تكاد تسعهم مجالسهم بما يأخذهم فيه من الدهشة والاستغراب. فإذا كان هذا مما لا يمكن في الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد، فقد غلط الناس إذ حسبوا (زيور باشا) رجلا واحدا، والواقع أنه عدة رجال، وعلى الصحيح هو عدة مخلوقات؛ فإذا أدهشك التباين في أخلاقه، وراعك هذا التناقض في طباعه، فذلك لأن هذا الجرم العظيم الذي تحسبه شيئا واحدا، مؤلف في الحقيقة من عدة مناطق، ولكل منها شكله وطبعه وتصوره، وحظه من التربية والتهذيب؛ فمنها العاقل ومنها الجاهل، ومنها الحكيم ومنها الغر، ومنها الكريم ومنها البخيل، ومنها المصري ومنها الجركسي، ومنها الفرنسي ومنها الإنجليزي، كلٌ يجري في مذهبه، ويتصرف في الدائرة الخاصة به؛ فلا عجب إذا صدر عن تلك المجموعة (الزيورية) كل ما تري من ضروب هذه المتناقضات. والظاهر أن زيور باشا، برغم حرصه على كل هذه الممتلكات الواسعة، عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف. ومادامت (الإدارة المركزية) فيه قد فشلت، فأحرى به أن يبادر فيعلن إعطاء كل منها (الحكم الذاتي) على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرج في سبيل الرقي والكمال. وحسب عقله -في هذا النظام الجديد- أن يتوافر على إدارة رجليه وحدهما، ولعله يستطيع أن يسيّرهما في طريق الأمن والسلام..) كما يقول أبو نواس:

ليس على الله بمستنكر ⁂ أن يجمع العالم في واحد

***



كثير من الشائعات السيئة تبدأ من استنتاج تحول إلى رؤية عند النقل.

الدكتور ممدوح وشاحي

حبيبنا الدكتور ممدوح وشاحي، سافر إلى السعودية في رحلة عمل في منتصف تسعينات القرن الماضي لمدة سنة، قضاها حفارو القبور في قريتنا في جهد جهيد.

***

ميراث العبقرية



يقولون أن العبقرية لا تورث، وأعتقد أن هذا القول فيه كثير من الحقيقة، وقد أدرك ذلك بشكل دقيق أحمد بك شوقي أمير الشعراء، حين خاطب ابنه علي بقوله:

رزقتُ صاحبَ عـهــد ⁂ وتمَّ لي النســلُ بعـدي

ولا أرانـي ونجلـــــي ⁂ ســـــلتقي عند مجد

وسوْف يَعلَمُ بَيـتـــي ⁂ أني أنا النَّسْــلُ وحْدي

فيا علـِي، ولا تلُمْــني ⁂ فما احتِــقارُكَ قَصْدي

فإن أســـاءَكَ قوْلـي ⁂ كـــذّب أباكَ بـــوعدِ

***

إذا لم يكن حرا بموطنه الفتى ⁂ فسم الفتى ميتا وموطنه قبرا



شعر الراحل العراقي الرائع (معروف الرصافي).

الشاعر فؤاد

في سفري إلى العراق في ثمانينات القرن الماضي، جمعتني الجيرة بأحد شعراء العراق المبدعين المجهولين، حيث أنه خلال فترة حكم الرئيس صدام لم يك يسمح لأي مبدع أن ينشر إبداعه مالم يتوافق مع سياسة حزب البعث، أما من تُشْتَمّ من كتاباته رائحة المعارضة فكان مصيره ما تعلمون.

كان اسمه فؤاد، وهذا الاسم نادر في العراق؛ إذ أن الأسماء المشهورة لديهم مثلا جاسم، ليث، حيدر، إلى آخره؛ فسألته عن ذلك فقال إنه أُسّميَ على اسم الملك فؤاد ملك مصر لأن أباه كان يحب مصر، والقاهرة حينئذ قبلة الثقافة والعلم في العالم العربي كباريس في أوروبا.

ذكر لي أن أحد العراقيين سافر إلى القاهرة في الخمسينيات وعاد يحكي لهم ما رأى فيها من مظاهر الحضارة والرقي، وقد أقسم لهم بالأيمان المغلظة أنه رأى عراقيا آخر في شوارع القاهرة.

حكى لي أنه عندما كان يصلهم فيلم جديد لعبد الوهاب، يتراهنون أيهم يحفظ أغانيه من أول مشاهدة للفيلم، وكان هو يشاهده قبل أصدقائه خلسة ويحفظها. وكانت الموقعة الكبرى يوم زارت أم كلثوم بغداد، كان مستمعيها قد ازدحموا حول المسرح وفي الشوارع المجاورة قبل الحفلة بليلة.

روى لي أنه كان حزينا جدا يوم قُطعت العلاقات الدبلوماسية بين بغداد والقاهرة بعد اتفاقية كامب دايفيد.

ويوم أن أعيدت العلاقات بين بغداد وواشنطن قبل القاهرة كان أشد حنقا وغضبا. جاءني على غير وقت الزيارة يقول "ما هي مصر!؟ نحن لا نعرف بلدا اسمه مصر بل نعرف واشنطن (ماما أمريكا)" -قالها قبل محمد صبحي في مسرحيته الشهيرة- ثم رفع سبابته القصيرة في وجهي قائلا "أتدري أنني تعلمت تناول الطعام بالشوكة من الأفلام المصرية؟".

كان هذا الرجل يتعاطى السياسة إلى جانب الأدب، وكان يقدس الحرية، وكان بيته المفضل قول معروف الرصافي:

لقد كرهت نفسي كل شيء معبّدِ ⁂ لقد كرهت حتى الطريق المعبّدا

كانت سهراتنا تمتد حتى قبيل الساعات الأولى للفجر، خصوصا وقد كان الرجل متقاعدا، وكان يعمل مفتشا سابقا للجمارك (كمارك كما يكتبونها في العراق)، ولذلك فقد جاب العراق طولا وعرضا، وقد سرد لي تاريخ العراق غير المكتوب، والذي لم نتعلمه في المدارس، وخصوصا تاريخ نوري السعيد والعصر الملكي وفترة عبد الكريم قاسم، الذي كان يسميه عبد الناصر (قاسم العرب)، وكيف تأثر العراقيون بخطب عبد الناصر، وكان من ضمن أسباب الثورة على حكومة نوري السعيد رفض عبد الناصر الدخول في حلف بغداد الذي تقوده بريطانيا، وخطبته المشهورة في دمشق والتي تفجرت الثورة في بغداد من بعدها وأعلنت الجمهورية.

روى لي تاريخ حزب البعث وصدام حسين، وعندما وصلنا إلى فترة صدام ختمها بمثل عراقي يقول: "هذا هو الصفا يا مصطفى". وهو الذي قال ردا على سؤال لي: "في العراق حاليا لا توجد معارضة ولا يستطيع أحد أن

يفكر مجرد التفكير في المعارضة ولا حتى في عقله؛ لأنه إذا كان لديكم الجدران لها آذان فعندنا قد يبلّغ الابن عن أبيه. وقد حدث بالفعل!"

كان حزب البعث يجنّد حتى الصبية في صفوفه، لجمع المعلومات بغرض تأمين الجبهة الداخلية إبّان حربه مع ايران، وكان يُطلب من كل عضو في الحزب أن يُقدِّم تقريرا يوميا عما شاهد وسمع. ولما انشغل أحد الصبية باللعب عن تقديم التقرير اليومي، عنّفوه وسأله مسئول الحزب في منطقته: "ألم يحدث أي شيء يلفت انتباهك اليوم!؟" فأجاب الصبي: "لم أبرح منزلي اليوم"، قال الرجل: "وماذا حدث في منزلكم؟" قال: "لم يحدث شيء سوى أنني كنت أشاهد التليفزيون وكانت نشرة الأخبار تقدم تقريرا عن نشاط السيد الرئيس، الرفيق، الركن، صدام حسين، عندما دخل أبي وأمرني بتغيير القناة، ولما أدرت التليفزيون إلى القناة الأخرى وجدنا نفس التقرير، فقال أبي متأففا "يابا!! اش دعوة! الزفت هذا على القناتين!؟".

بعدها تقدمت مفرزة من قوات الأمن وقبضت على الأب، وتمت مواجهته بكلام ابنه، وعوقب بتهمة الإساءة إلى النظام الجمهوري في شخص الرئيس.

كان وزير الإعلام في عهد صدام اسمه لطيف نصيَف جاسم، قبل الوزير الصحاف، وكان صاحبنا يلقبه بـ (جوبلز) وزير الدعاية النازي المشهور الذي كان يقول: "كلما سمعت كلمة ثقافة تحسست مسدسي". لكنه كان وزيرا لطيفا حقا، وكان يصرف بسخاء على الصحف والمجلات التي تصدر خارج العراق، خصوصا مجلة كان اسمها (التضامن العربي)، وكان رئيس

تحريرها الصحفي اللبناني المحترف فؤاد مطر، والتي كانت تكيل المدح بدون حساب لأفكار صدام ونظامه.

ذات يوم دخل علينا ابنه طالب الطب ونحن نتحدث في التاريخ والسياسة، فاعترض على أبيه مشفقا وقال له "يا أبت لا تتحدث في السياسة" فقال له: "يا بنيّ كل أمور الحياة حديث سياسة، فلو قلت أن كيلو السكر زاد فأصبح بدينارين -أيامها كان الدينار العراقي يساوي دولارا في السوق السوداء وثلاثة دولارات للسعر الرسمي- لكان هذا حديث سياسة". وبعدها لم نعد نتحدث إلا في الأدب برغبة منه خشية ما تعلمون.

تعرفت بعدها على أحد الأدباء الذين يجيدون الإنجليزية بالممارسة، كان اسمه فيروز وكان مرحا مشاكسا، عمل مع الإنجليز قبل الاستقلال، وروى لي كثيرا من المقالب والطرائف معهم، حيث أنهم كانوا يتوجسون شراَ من جمال عبد الناصر، وكانوا يستعينون بفيروز ليقوم بالترجمة الفورية لخطب عبد الناصر، إذ يتحلقون حول الراديو الكبير كلما خطب عبد الناصر، ويكون فيروز هو نجم الحفلة إذ يقوم بالترجمة الفورية للخطاب مقابل المشروبات والسجائر الإنجليزية الفاخرة. ولما كان فيروز يعلم قلقهم وخشيتهم من قرارات عبد الناصر، حتى إن أحدهم أسرّ له أنه يخشى أن يقوم عبد الناصر بتأميم نفط العراق من القاهرة، أو الطلب من المواطنين العراقيين مهاجمة الإنجليز في العراق، فكان صاحبنا يترجم الخطاب ويحشو في الترجمة ما شاء من التوابل التي تجعلهم يقفون على أطراف أصابعهم، لدرجة أنهم كانوا يحزمون حقائبهم كلما أعلن عن خطاب لعبد الناصر في الإذاعة.

العراق يتذوق الفن

العراق بلد حضارات متعددة ضاربة في عمق التاريخ، مهد العلوم والآداب وهذه بديهيات كنا نقرأها في كتب الدراسة، لكن الجديد أنني رأيت هذا عيانا في سلوك أبنائه، ولذلك كنت كلما تذكرت بغداد أتمثل قول الشاعر العراقي الأصيل معروف الرصافي:

عتبت على بغداد عتب مودع ⁂ أمضّته فيها الحادثات قراعا
فبارحت أرضا ما ملأت حقائبي ⁂ سوى حبها عند البراح متاعا

***

أفديه إن حفظ الهوى

كنت قد قرأت أن الشاعر المصري الكبير محمد عبد المطلب كان يستمع لأم كلثوم تشدو برائعتها:

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ⁂ ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ⁂ حلوا فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصب ⁂ النحيل فقد عفا وتضعضعا
هل في فؤادك رحمة لمتيم ⁂ ضمت جوانحه فؤادا موجعا
هل من سبيل أن أبث صبابتي ⁂ أو أشتكي بلواي أو أتضرعا
إني لأستحيي كما عودتني ⁂ بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

فكان الشاعر يشق ثيابه طربا وما لبث أن كتب قصيدة يمدح بها أم كلثوم يقول في مطلعها:

وقفت فكان على الدجى أن يخشعا ⁂ وعلى الحمام الوُرْق أن تتسمعا
تشدو وقد ملك الوفاء فؤادها ⁂ "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا"
وترنحت فكأن أغصان الربا ⁂ سقيت سلافا بالنسيم مشعشعا
لحن إلى الألباب تبعثه الصبا ⁂ فترى القلوب به ذوائب نزعا
عذب يسير مع الحياة إلى النهى ⁂ تخذت له في كل قلب موضعا
كالروح تنبعث النفوس بسره ⁂ أو كالحيا جاد الثرى فترعرعا
إذ أنشدت "ملك الفؤاد" سمعت من * تلقاء قلبك "ما عسى أن أصنعا"
أو رجّعت "هل في فؤادك رحمة" ⁂ خلت النجوم لها خوافق خشعا
أو صورت معنى الهوى في لحنها ⁂ كان الغرام لكل نفس موجعا

ما إن ترى في الجمع إلا موجعا ⁂ "ضمت جوانحه فؤادا موجعا"
يا بنت إبراهيم هل سمحت لنا ⁂ دار السلام بعهدها أن يرجعا
بغداد عاد لنا بعهدك حسنها ⁂ من للرشيد بأن يعود فيسمعا
صوت تفرد بالجمال وزانه ⁂ كرم الشمائل في حلاك تجمعا


أم كلثوم تحمل وسام االرافدين في بغداد عام ١٩٤٦ . لم يكن القانون العراقي يسمح بمنح الاوسمة للنساء لكنه عدل بعد حفلة إم كلثوم في قصر الرحاب الملكي .

ولما كانت الإذاعة المصرية -المصدر الوحيد لإذاعة الأغاني القديمة- لم تذع هذه الأغنية من قبل ولم أسمعها في إذاعة أخرى، فقد ظننت أنها مُحيت من التسجيلات القديمة. ولما اقتنيت جهاز كاسيت في أوائل الثمانينيات نقبت عن هذه الأغنية في مظانها فلم أعثر لها على أثر، فكأنما كنت أحْطِبُ بليل إذ لم يفهم عني أحد من أصحاب محلات الكاسيت مطلبي، حتى قادتني خطاي إلى معرض شركة القاهرة للصوتيات والمرئيات في ميدان الأوبرا، وسألت عنها الموظف الموجود خلف الطاولة، فالتفت إليّ وكأنما أتحدث بالهيروغليفية أو اللاتينية ولم يفهم عني ولم أستطع أن أتواصل معه فتركته.

بعد حين، وفي بغداد حيث تكثر محلات بيع شرائط الكاسيت، وأهل بغداد (سمِّيعة)، حدث أن كنت في زيارة لحي الرصافة المشهور، والذي قال فيه الشاعر العباسي علي بن الجهم:

عُـيونُ الـمَها بَينَ الرُصافَةِ وَالجِسرِ ⁂ جَلَبنَ الهَوى من حَيثُ أدري وَلا أدري
أَعَـدنَ لِـيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُن ⁂ سَـلَوتُ وَلكِن زِدنَ جَمرًا عَلى جَمرِ

هذا الحي عندما تلج إليه، فكأنما تجتاز بابا سحريا يفصل بين القرن الحادي والعشرين والقرن التاسع؛ ففي الجانب الأول العمارات الشاهقة، والشوارع المرصوفة بالأسفلت، والمحلات التجارية الحديثة، والسيارات الفارهة التي تنهب الأرض نهبا؛ وعلى النقيض من ذلك، الجانب الآخر حيث ترى الحوانيت القديمة، وتسير في نفس الشوارع والأزقة التي تسكّع فيها أبو نُوَاس وخلف الأحمر وتماجنا في أزقتها وحاناتها، وكان عيدان السقا -أبو المتنبي- يحمل الماء إلى ساكنيها كأنما تركها بالأمس مبللة رطبة، أرضيتها مرصوفة بالحجر البازلتي الأسود مثل شوارع خان الخليلي في القاهرة، تلمع كأنما طليت بالورنيش البراق، زلقة كالجليد، يتوجب عليك توخي الحذر عند السير عليها لئلا تنزلق قدماك. والحانات القديمة متجاورات متلاصقات كأنهن سكارى يتساندن، وعرض الزقاق قليل لا يتجاوز مترين أو ثلاثة على أقصى تقدير، يكاد جيران البيوت المتقابلة أن يتصافحوا.

في هذا الزقاق أو الحارة، لمحت دكانا لبيع الشرائط الموسيقية يبدو عليه القِدَم، تزين واجهته صورة لأسطوانة قديمة باهتة لأم كلثوم.

دلفت إليه، فوجدت كهلا محدودب الظهر دبَّت في أعضائه الشيخوخة إلا عقله، يضع نظارة صفراءَ عدساتها، ليس عن أناقة ولكن عن قِدَم، يجلس على كرسيَ خشبي قاعدته مجدولة بالحبال. أرفف الدكان الخشبية عليها أكداس من الاسطوانات القديمة لعبد الوهاب وأم كلثوم وناظم الغزالي ولميعة توفيق وعفيفة إسكندر وفيروز وغيرهم، وقد علاها التراب، وعلى الطاولة نسخة قديمة صفراء من صحيفة فكاهية عراقية منقرضة اسمها (حبزبوز)، وجهاز جراموفون قديم معطل. ألقيت عليه

السلام وسألته عن القصيدة، فبدت على محياه تعبيرات غريبة مختلطة، وقال لي: "أتدري أنه لم يسألني عنها أحد من قبل.. لكنها عندي هي وبضع موشحات أخرى في شريط واحد"، وانطلق يسرد ذكرياته مع أغاني أم كلثوم وفيروز وعبد الوهاب، واكتشفت أنه ذو ثقافة رفيعة، وأن هذا الدكان هواية فقط؛ حيث أن زبائن هذا الفن ممن يهوون الأغاني القديمة والموشحات انقرضوا أو أوشكوا، وكان هذا الدكان والرجل مقصدي كلما زرت هذا الحي، نحتسي الشاي البغدادي ونتعاطى الأدب والفن إلى أن حالت الأيام بيني وبينه.

***

حتى متسوليهم علماء

كان أحد النحاة يسير على جسر الرصافة في بغداد، فلمحه سائل فقال له طالبا الصدقة: "مسكينا فقيرا"، فقال النحوي: "لِمَ نصبت!؟" فقال السائل: "فديتك، بإضمار (ارحموا)".

***

في فترة الحكم الملكي للعراق، كان النظام العام مستبدًا، والتهمة الجاهزة كما في سائر أقطار العرب حينئذ -حتى لا يتهمني أحد أنني أقصد العصر الحالي لا سمح الله؛ فنحن نعيش في واحة الديموقراطية ونتمرغ في نعيمها.

كانت التهمة لكل من يخالفهم هو قلب نظام الحكم، ولما كان الشاعر العراقي والمعارض السياسي معروف الرصافي نزيلا دائما على السجون السياسية نظرا لمواقفه الحادة وشعره الحارق اللاذع، كان نصيبه من هذه التهمة الكثير، مثله في ذلك مثل الكاتب المبدع محمود السعدني -رحمهما الله- الذي ما إن أحيل إلى المعاش، أرادوا أن يحسبوا له فترة الخدمة، فإذا به قضى جلها في السجون.

كان معروف الرصافي جالسا على أحد مقاهي الفلّوجة، فإذا به يرى جاويش الدرك يمسك صبيا مشردا من قفاه ويسوقه أمامه، فسأله: "ماذا فعل؟" فأجاب الجاويش بصوت أجش: "عاوز يقلب الحكومة"

فرد الرصافي على البديهة: "هوه الحكومة مالتكم صفيحة زبالة؟!" (مالتكم) هي (بتاعتكم) باللهجة العراقية.

***

كان بعض المبدعين قبل أن ينالوا جانبا من الشهرة، ينشرون إبداعاتهم تحت أسماء كبار الكتاب، لتنال حظا من القبول لدى القراء، وليس هذا بجديد؛ فقد حدث هذا في القرن الثالث الهجري، عندما نشر أحد الكتّاب كتابا باسم الجاحظ عليه أسلوب الجاحظ ولكن ليس فيه فكره ولا ذاك البريق الذي يشعر به كل من يقرأ للجاحظ. واختلف فيه النقاد، وهو كتاب (رسائل الجاحظ الأدبية).

***

تسويق الشخصيات



عندما كنت مديرا لوكالة لخدمات التسويق، كنا نقدم خدماتنا للشركات الكبرى مثل P&G وUnilever وغيرها، وحدث أن اتفقنا مع إحدى هذه الشركات على تنفيذ برنامج ترويجي لأحد منتجاتهم المميزة في دول الخليج، وتطلب ذلك أن يقوم أحد متخصصي التسويق من جانبهم بعمل دورة تدريبية على آليات الترويج لفريق العمل المشارك في البرنامج. وعند لقائي به قبل تقديم الدورة، ذكر الرجل أنه كان واحدا من الأفراد المشاركين في الحملة الانتخابية للرئيس كلينتون، فلفت ذلك انتباهي فسألته:

"أنت الآن تتحدث عن آليات التسويق لمنتجات العناية بالبشرة ومساحيق الغسيل.. ما دخل ذلك بالحملات الانتخابية!؟" فأجاب إجابة شافية بكلمتين فقط: "President is a Product"، ولذلك ينبغي استخدام آليات التسويق لترويجه.

***

عند الاغتراب قد تحن إلى من تكرههم.

الدكتوراه من بريطانيا

في بداية التسعينيات، وفي دولة خليجية، التقيت برجل كان في منصب رفيع، وكان يحث الخطى نحو الثمانين، غير أنه كان يتمتع بصحة جيدة. قامته قصيرة، أشيب اللحية مهندمها، تبدو كبياض الثلج، يعلوه الوقار ولا يمنعه وقاره من المزح الراقي، وسيم قسيم، تدلك ملامحه كما ينبيك سلوكه بأنه من عائلة عريقة، وهو أول مواطن من دولته يحصل على الدكتوراه من إحدى جامعات بريطانيا العريقة. وكان يحكي لي كثيرا من الأسرار السياسية التي عاصرها واطلع عليها بحكم منصبه، إذ كان في سكرتارية حاكم الدولة، وكان بعضا من هذه الأسرار صادمًا لي، تدل في خلاصتها أن الحكام يبذلون في سبيل البقاء في الحكم كل ما يستطيعون، وليست لديهم أي خطوط حمراء حتى إنهم على استعداد أن يخوضوا في بحار من الدماء حفاظا على عروشهم وكراسِيهم -وقد خاضوا- حتى من اشتُهر منهم بالمواقف القومية، وعندما كنت أستحثه ليحكي، وكبار السن في العادة يحبون من يصغي إليهم دون مقاطعة، كان يشعر بمتعة في القص والسرد. ذكر لي أنه قابل عبد الناصر في بداية الستينيات محمّلا برسالة سرية إليه، فقلت له "ما رأيك فيه؟" فذكر لي رأيا غريبا كان يتعارض مع ما قرأت من كتب وبالأخص أدبيات الإخوان خلال هذه الفترة.

قال لي هذا الرجل: "طبعا المقابلة كانت قصيرة لا تمكِّنِّي من إبداء الرأي فيه، لكن هذا الرأي كوّنته مما اطلعت عليه بحكم موقعي، وخلاصته أن عبد الناصر كان يود أن يقيم دولة قوية في الشرق العربي اقتصاديا

وعسكريا وعلميا، تحرر فلسطين وتنشر الإسلام والعربية كما يفهمها هو -يقصد عبد الناصر- فأثارني هذا الحديث، قلت "كيف تنسب ذلك لعبد الناصر!؟"، قال "لم يكن يود أن يُعرف عنه أنه يسعى لإقامة دولة ذات طابع إسلامي، بل بالغ في نفي هذه الصفة عنه حتى لا يُحارب، وبالرغم من ذلك حوربَ لأن الغرب لم تنطل عليهم خدعته، وأيقنوا أنه حتى لو كان صادقا في الوجه العلماني الذي يبدو عليه، فإن وجود دولة قوية في الشرق الإسلامي سوف يكون له أعظم الخطر عليهم؛ لأنها سوف تنحو إلى الإسلام عاجلا أو آجلا. خصوصا وأن تجربة محمد علي لا تبارح أذهانهم.

زعزع كلامه كثيرا من قناعاتي، وجعلني أبحث جيدا في أسباب وتداعيات خلاف عبد الناصر مع الإخوان.

بعد كثير من الجهد والبحث في كتب الناصريين والإخوان وغيرهم ممن حاول فهم تلك العلاقة المعقدة -إذا استبعدنا ذوي الهوى- وصلت إلى قناعة في خلاف عبد الناصر مع الإخوان، مفادها أن كليهما كان ذا رؤية مستقبلية متقاربة، ولكن اختلفت الوسائل والآليات، وتدخل ذوي المصالح أفرادا ودولا لتوسيع الشقة بينهما، من داخل النظام ومن خارجه، ساعدهم على ذلك بعض قيادات الإخوان بقلة خبرتهم السياسية، وعدم استقرائهم الجيد للواقع المصري والعربي والدولي، ومقدار التأثير الذي يملكونه حينها مقارنة بالتأثير الطاغي لعبد الناصر وثورته، وساعدت القوة والشعبية الجارفة عبد الناصر على فرض توجهه ورؤيته، في حين كان الإخوان مجردين منهما، ولو تبادلوا المواقع لفعلوا مثلما فعل.

كثير من الناصريين والاشتراكيين الآن يتوجسون من الإخوان بسبب الأفكار التي زُرعت فيهم من أيام التوهج الناصري، وأفكاره التي بثتها آلته الإعلامية والتي مازالت مشتعلة في قلوبهم وعقولهم، والإخوان على الجانب الآخر ينسون كل إنجازات عبد الناصر ولا ينسون أبدا إخفاقاته ولا ما حدث لهم في المعتقلات -وهو حقيقة- تنضح بذلك أدبياتهم التي ركزت على الجوانب السلبية في عصر عبد الناصر فقط، والتي تحاكي بكائيات الشيعة.



لذلك أزعم أن الإخوان شاركوا -دون قصد- في استمرار الحكم العسكري لمصر لمدة ستين عاما، كان من الممكن تجاوزها لو انضووا تحت لواء الثورة، وغيروا من داخل النظام وليس من خلال الانطوائية التي أدمنوها خلال حكم العسكريين. طبعا الكلام السابق لن يقنع الطرفين اللذين حالت الأستار الداكنة بينهما وبين أن يتواصلا عملا أو فكرا.

****

المحامي مختار لاشين

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ** في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

يقول الكاتب برنارد شو: "بينما تكون الكذبة أتمت دورتها حول الأرض، تكون الحقيقة مازالت ترتدي بنطالها"؛ ذلكم لأن معظم الناس قد جبلوا على ترديد الوقائع السيئة ونشر الأكاذيب، كما أن ذوي السمعة السيئة يتقدمون ذوي السمعة الحسنة وفاعلي الخير. يقول معروف الرصافي:

ألم تر البحر تعلو فوقه الجيف ** وتستقر بأقصى قاعه الدرر

وفي السماء نجوم لا عداد لها ** وليس يكسف إلا الشمس والقمر

كان المحامي مختار لاشين رجل قانون (يعني حيكون بتاع بطيخ!؟)؛ أقصد مارسه والتزم به. تدلك قسماته على كرم أصله ومحتده، طويل القامة بشكل ملفت، متين البنيان، يسلك سلوكا راقيا، ذا صوت عميق جهوري يحمل نفسه على التحدث بصوت خفيض فيخرج كلامه صافيا هادئا، ولو تركه على سجيته لصم الآذان. يذكرك بقول الشاعر:

إذا صاح يوما حسبت الصخر منحدرا ** والريح عاصفة والموج يلتطم

في نهاية سبعينيات القرن الماضي، أردت العمل في مصنع السكر بدشنا، فقمت بمحاولة للتعيين فيه كتب لها الفشل بكل صفاته، وكنت في جلسة مع بعض الأصدقاء، فنصحني أحدهم أن أستعين بالمحامي مختار لاشين لكونه يعرف رئيس مجلس الإدارة شخصيا، بل هو صديق له، وحثني على الذهاب إليه. انبرى أحد الجالسين قائلا: "لا تنس أن تأخذ معك شيئا من خيرات الريف للأستاذ حتى يهتم بطلبك، وهو كما تعلم يترافع في القضية ويأخذ من الخصمين". كانت كلمة جارحة ألقى بها ذاك الرجل

دون مبالاة، لكنها لقيت استهجان البعض حتى قال له أحد الحضور: "اتق الله! هل رأيت؟" فرد محرجا متلعثما: "سمعت".

ذهبت لملاقاة الرجل، وكان مكتبه في دشنا في شارع جانبي غير مرصوف، تتخلله برك صغيرة من المياه الراكدة، والتي تظن أنها من آثار الشتاء الماضي. كان مكتبه في الطابق الثاني في عمارة عتيقة، ولجتُ من الباب الأمامي لمكتبه، فلفت انتباهي حجم الملفات المتناثرة التي تملأ جوانبه. المهم أنه استقبلني ورحب بي ترحيبا لائقا، فتشجعت وذكرت له طلبي، فقال: "وافني في مكتبي غدا صباحا عند الثامنة". ظننت أنه يصرفني، وبالرغم من ذلك صحوت في اليوم التالي مبكرا، وارتديت أفضل ما عندي، وانتعلت الحذاء الجديد الذي ابتعته خصيصا لهذه المقابلة، وذهبت إليه تتلاعب في رأسي الأفكار والهواجس؛ "هل يسوّف؟ هل يطلب شيئا؟" وفي النهاية "هل أجده في مكتبه أصلا أو نسيني ونسي طلبي؟" صباح ذلك اليوم تأخرت في الذهاب إليه لعائق حوالي عشر دقائق، ولدهشتي وجدته منتظرا في الشارع أسفل المكتب في كامل أناقته! اعتذرت له عن التأخير، فقبل الاعتذار بنظرة قصيرة ملؤها التأنيب. طلبت منه أن نذهب إلى موقف السيارات لكي نستقل إحداها إلى المصنع، فتجاهل قولي وأوقف سيارة أجرة وطلب من السائق التوجه إلى المصنع. هنا دارت الدنيا برأسي؛ لأن كل ما معي لا يتجاوز الخمسة جنيهات إلا بقروش قليلة دبرتها لهذا اليوم، تصبرت وتحاملت على نفسي حتى وصلنا إلى بوابة المصنع الخارجية، وكنت أشفق عليه من السير من بوابة المصنع حتى مبنى الإدارة لكبر سنه وثقل وزنه، وفوجئت بموظف الأمن يفتح الباب للسيارة لندخل حتى مكتب رئيس مجلس الإدارة، ثم كانت ثالثة

الأثافي عندما أمر السائق أن ينتظر، وصعد أمامي الدرج قفزا كما لو كان شابا في الثلاثين، وأنا وراءه أضرب أخماسا في أسداس، سوف تزيد الأجرة! لابد أنها سوف تكون وقعة كموقعة البسوس مع السائق الذي بدا جذلا بالانتظار؛ خصوصا وأننا لم نتفق معه على الأجرة، حيث يظل مجاله مفتوحا للمساومة والإحراج كعادة السائقين.

دخلنا إلى مكتب فسيح مرتب، جدرانه مزينة بلوحات يبدو عليها الذوق الرفيع، على آخره طاولة أنيقة تجلس من خلفها فتاة من قوم عيسى، أنيقة كفتيات الإعلانات، بعيدة مهوى القرط (طويلة العنق)، تلبس تاييرا أسودا، زادته أناقة صفاء بشرتها ودقة ملامحها وطلاوة حديثها، تمطت واعتدلت في جلستها ورحبت بنا أيما ترحيب لدى دخولنا.

جلسنا قبالتها ريثما تعطي رئيسها علما بحضورنا، ما هي إلا لحظات حتى رن جرس بصوت ناعم وخافت، فقالت للأستاذ: "تفضل الرئيس ينتظرك"، وفتحت له الباب برشاقة كما يحدث في الأفلام، وأنا أكاد أتعثر في خطوي من خلفه.

دخلنا إلى مكتبه، فإذا به واقفا خلف المكتب الكبير، قصير القامة بشكل لا تخطئه العين، معتدل القد، كتمت في نفسي ضحكة انفجرت في أعماقي ولم يبد لها أثر على شفتي، عندما بدت المقارنة في الطول بينه وبين الأستاذ واجبة. رحب بالأستاذ ترحيبا حارا، وصافحني وجلسنا قبالته، وبعد مقدمة الترحيب المعروفة طلب إليه تعييني في إحدى الوظائف الشاغرة لديهم، فدق الجرس وجاءت السكرتيرة، وهمهم إليها بكلام غير واضح، فاصطحبتني خارجا.

وتم التعيين هكذا ببساطة كتابة هذه الجملة الآن.

انتظرت خروج الأستاذ من عند الرئيس لدى السكرتيرة حوالى الساعة، مرت سريعا دون ملل (أصبحت فيما بعد زميلة). لدى خروجه اصطحبني إلى الخارج وركبنا السيارة، وكان يتبسط معي في الحديث حتى وصلنا إلى مكتبه، وأنا شارد الذهن تماما لم أعِ ما كان يتحدث عنه لعلمي أن السائق سوف يطلب مبلغا أضعاف ما أحمله.

عند نزولنا من السيارة وضعت يدي في جيبي لأعطي السائق الأجرة، وأنا أحاول إخفاءها عن الأستاذ، لكنه نظر إليّ نظرة غريبة فيها اعتراض شديد ممزوج بشيء من الرفق والحزم في آن معا، ودفع للسائق عشر جنيهات دفعة واحدة، كانت تقارب ربع مرتب شهر للموظف حديث التعيين، اختطفها السائق ودسها في جيبه سريعا، وانطلق بعدها جَذِلا مسرورا ومشيعا بنظرات الحنق والغيظ من جانبي.





حسن أبو هانم

كان في قريتنا رجل من البلهاء اسمه حسن أبو هانم، ويدعونه (الشيخ حسن)، وكان هذا الرجل ضخم الجثة عظيم البنيان، يخيل إليك أنه من بقايا عاد أو من الفراعنة الشداد، أوتي قدرا من القوة يحطم الجلاميد الصّلاد، لكنه كان قليل الحظ في جانب العقل، وكان يخرج من فيه الكلام مبعثراً؛ إذ كانت له مراشف كمشافر الإبل، يغطيها شعر شاربه الكث غير المرتب والنامي حولها كالعشب غير المجزوز، ويستبدل كثيرا من الحروف بغيرها، فيرطن بلغة غير مفهومة غالبا، وبشكل هزلي لا يكاد يتماسك سامعه من الضحك، كما قال أستاذنا الجاحظ "له كلام الحكل ورطانة الزط"، فكان مثار سخرية الصغار وتعظيم الكبار، يجري وراءه الصبية ويقذفونه بالأحجار ويجري خلفهم ندًا لند، ويقول عنه بعض الكبار إنه وليّ وله كرامات، حتى أن النصارى في القرية المجاورة كانوا يتندرون عليه بقولهم "أهبل المسلمين شيخ". كان بلا منازع نجم الحضرة الصوفية التي ينصبها المتصوفة في الموالد والمناسبات، تراه وهو يهتز على وقع الطبول والبازات (صاجات كبيرة)، كتوابع الزلازل تهتز أعاليه وأسافله كلٌ في طريق، فيستغرب من لا يعرفه ضحكا.

ذات يوم، فُقد هذا الرجل فلم يُعثر له على أثر، كأنما انشقت الأرض وابتلعته، أو صعد إلى السماء فاحتملته، ولم يهتم أحد بإبلاغ السلطات أو البحث عنه، وكثرت القصص والروايات عن سبب اختفائه، وكان المقتنعين بولايته يقولون أن هذا الاختفاء دليل على كراماته، وأنه سوف يظهر في مكان آخر، وكان بعضهم يقول أنه دخل بيتا في إحدى القرى المجاورة ولم

يخرج منه أبدا، وطواه النسيان بعد فترة قصيرة من اختفائه، وطُوِيَ سره معه.

***

الحضرة، الحضرة، الحضرة

إلى جوارنا قرية صغيرة يتميز أهلها بالنكتة الحاضرة وسرعة البديهة، كما يوصفون جورا بالبخل الشديد، وعندما كان الجهل ضاربا أطنابه في قريتنا والقرى المجاورة، كان مدعي التصوف ينظمون أمسيات يتجمعون فيها ويسمونها (حضرة)، والتي يتخللها الرقص المحموم الذي يدعونه ذكرا، والمرتبط في أذهانهم بكرامات الأولياء وخزعبلات المدعين، وكان بعض شيوخ المتصوفة يزينون لهم هذا الرقص ويعتبرونه أعلى مراحل الشفافية والعبادة، خصوصا إذا أخذ منشدهم يهذي بكلمات غير مفهومة، يقتبس فيها كثيرا من شعر ابن الفارض وابن عربي، ويخطئ كثيرا في اللغة العربية كما لو كان يقرأ بالأذرية أو بالأوردو. كان هذا تقريبا في كل ريف مصر عدا هذه القرية، وكان أهلها يكرهون هذه الحضرات ولا يسمحون لأحد بإقامتها في ساحاتهم، بل إن أحدهم اجترأ ذات مرة وأقامها لديهم، فانتظر الصبية حتى أخذ الوجد برؤوسهم، وحمي وطيس الحضرة، وتمايل القوم يمينا وشمالا كمن بهم من الجن مس، ومنشدهم يرغي ويزبد بالأشعار يعلكها؛ فألقوا عليهم دلاءً من الماء البارد من سطح البيت المجاور لهم، فهرول الراقصون لا يلوي أحدهم على أحد، يتخبطون في الطين اللزج وتفرقوا شذر مذر.

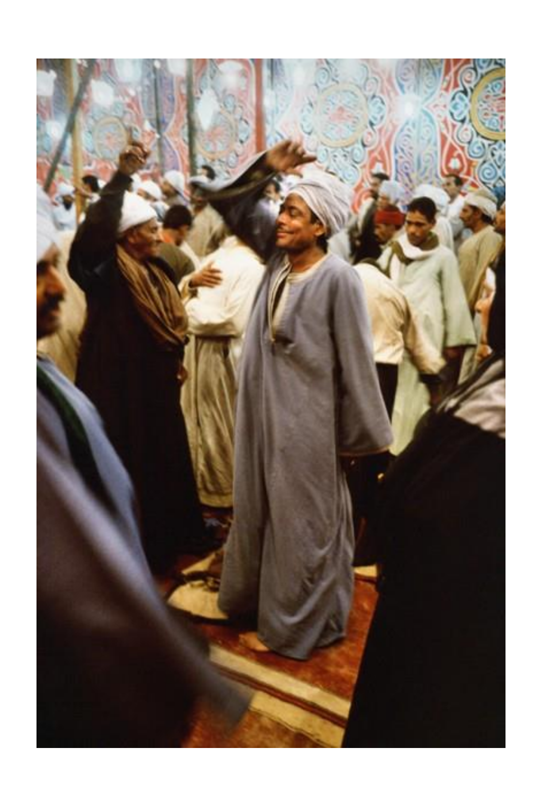
أراد أحد شعراء القرى المجاورة من مدعي التصوف هجائهم، ولم يدر أنه مدحهم، فقال:

قبلي بلدنا نجع منصور ⁂ لا عندِيهم عِرف ولا بَصَارة
حلفوا عالذكر ما يدور ⁂ عِليات(٢) نجعهم نصارى

(٢) عليات أكثرية باللهجة العامية

يقول أبو العلاء المعري:

أرى جيل التصوف شر جيل ⁂ فقل لهمُ وأهون بالحلول
أقال الله حين عبدتموه ⁂ كلوا أكل البهائم وارقصوا لي!؟



أراد أحد النصارى لديهم بناء كنيسة من الطوب اللبن دون القيام بالإجراءات ودون تصريح من السلطات، فلم يعارضوه، وإنما ذهب أحد ظرفائهم إلى المبنى تحت الإنشاء، ودس بين لبنات الطوب بعضا من النقود المعدنية ليلا، وفي الصباح جمع الصبية وأخبرهم أن النصارى يبنون كنيستهم بالقطع الفضية يضعونها في أساساتها، فانطلق الصبية يعيثون في أرجائها يجمعون النقود حتى تركوها صعيدا زلقا.

***

فهد عبيد

صديقنا فهد عبيد ذي لحية طويلة له سمت الدعاة، لكن له أفعال المردة! يخيّل لرائيه أنه من أهل الصلاح. أصيب في طفولته بمرض ترك أثرا في قدميه، فهو يمشي بعرج خفيف، ولذلك فقد خصصوا له موقفا خاصا لسيارته في شركة أرامكو السعودية، حيث يعمل هو وابن عم له. تعطلت سيارته يوما فطلب من ابن عمه أن يقله معه في غدوه إلى مكتبه، وقد كان. ثم سمح لابن عمه أن يوقف سيارته في المكان المخصص له، حيث أنه قريب من مكاتبهم، فكان له ما أراد.

حال وصوله إلى مكتبه، اتصل فورا بمكتب الأمن ساخطا لأن أحدهم قد أوقف سيارته في مكانه المخصص له، ثم التصق بالنافذة ليرى ما يكون؛ وما هي إلا برهة حتى رأى سيارة ابن عمه محمولة على الونش إلى خارج الموقف، وهو يصفق طربا!

***

فواز الأحمدي

صديقنا فواز أسمر اللون، بل قل هو أزرق من شدة السواد، وهو لا يخجل من ذلك بل يجعله مادة للسخرية. وهو ضخم البنيان ولا مايكل تايسون في إبّانه. وهو أيضا ذو ثقافة موسوعية، خفيف الروح لدرجة لا يمكنك التقاط أنفاسك من الضحك عندما يتحدث، بارع النكتة. يحكي عن نفسه يقول أنه ذهب إلى القاهرة في رحلة استجمام مع بعض الأصدقاء، وفي أول يوم صحا مبكرا وارتدى ملابسه لقضاء حاجة له، في حين مازال أصدقائه يغطون في النوم. واستيقظ أحدهم على جلبته، فسأله إلى أين في هذا الصباح الباكر؟ فأخبره أن أمه أوصته أن يشتري لها مفارش للأسرّة من القاهرة؛ حيث أن صناعتها مميزة، فقال له اشتر لي أيضا بعضا منها، ونقده بعضا من المال، واستيقظ باقيهم وطلبوا مثلما طلب، فأخذ المال منهم جميعا ونزل الدرج مسرعا، وما هي إلا ساعة أو أقل إلا وهو يدخل عليهم ينوء بحمله، وفتح الأكياس، فإذا هي كلها عبارة عن شرائط كاسيت، فسألوه والدهشة تكاد تعقد ألسنتهم "ما هذا!!؟" فقال: "أنتم منذ صحبتموني تنادونني بـ "يا أسود" و"يا عبد" و"يا خال"، وتحقِّرونني وكذا وكذا؛ وعند نزولي وجَدَتني أمام العمارة بائعة لطيفة في محل لشرائط الكاسيت، نادتني لكي أشتري قائلة "تعال يا أسمر"، فنزلت على قلبي بردا وسلاما، ورفعت روحي المعنوية إلى عنان السماء، فاشتريت منها بكل ما أعطيتموني شرائط كاسيت، فها هي فاقتسموها.

يروي عن نفسه أنه كان في زيارة لتركيا، وكان هو الأسمر الوحيد في الشارع، فسارت خلفه طفلة لا تتعدى السابعة، تسير وراءه أينما سار، فتوقف عندما لاحظها، فإذا بها تقترب منه ثم تمسح يدها في يده وتنظر في يدها لكي ترى أهذا طلاء أسود أم هو لونه الطبيعي!

قبل أن يتقاعد من العسكرية، كان في وحدته أثناء حرب الخليج، وكانت الوحدة في حالة طوارئ، فلم يذق للنوم طعما ثلاثة أيام متوالية، ثم استأذن قائده لكي يذهب إلى بيته فقط حتى ينام ليلة واحدة ويستحم، فسمح له القائد، فخرج وهو يشعر بصداع شديد ودوار، وكانت سيارته خارج سور المعسكر، فركبها، أدار محركها وانطلق. ولدهشته فإن سور المعسكر لم ينته بالرغم من قيادة السيارة لأكثر من عشر دقائق ويزيد. ضغط على دواسة السرعة والسور لا ينتهي، فقرر أن يتوقف. ولما نزل من السيارة فوجئ بأن الأشقياء سرقوا الإطارات ورفعوها على الأحجار، وهو لم يبرح مكانه، فاستقل سيارة أجرة إلى منزله وبعد نزوله من السيارة أراد الحصول على مسكّن للصداع من الصيدلية المجاورة، ولما كان في حالة غير عادية من عدم وضوح الرؤية، فلم ير الزجاج النظيف اللامع في واجهة الصيدلية، فاقتحمها من جانب الزجاج فحطمه تحطيما، وتناثرت شظايا الزجاج على أرضية الصيدلية، وغطت الدماء وجهه ويديه، وعلى إثر هذا الهجوم المباغت وأجواء الحرب المتوترة، ظن الصيدلي أن هذا المارد الأسمر الضخم يسطو على الصيدلية، فرفع يديه عاليا وفتح الصندوق دونما طلب ودون تأخير. ولما وضحت الرؤية أخذوا يضمدون جراحه، ويزيلون شظايا الزجاج من وجهه، وأعطَوْه الدواء بلا مقابل. وكعادة المجرمين أن يتفقدوا مواقع جرائمهم، فقد مرّ صاحبنا في

الصباح الباكر بالصيدلية ليرى آثار جريمته، فوجدهم قد دججوها باللوحات الإرشادية: [الباب من هنا]، و[الشباك من هناك]، [احذر الزجاج] الخ الخ.

بسبب كثرة ما قرأت عن شعراء الجاهلية والأعراب ومضاربهم وخيامهم، ظننت أنها مازالت قائمة، أو على الأقل بعضا منها، سألته يوما: "كيف هي حياة البادية الآن؟ وهل مازال الأعراب يعيشون في مضاربهم وأخبيتهم حول عيون الماء ومواطن الكلأ والعشب، كما كان يعيش تأبط شرا والشنفرى وصعاليك العرب المشهورين؟" فضحك طويلا وقال: "الآن يا حبيبي تجد أحدهم يرعى ماشيته (بالوانيت) بدلا من الناقة، وتراه وقد تأبط بكا أو تأبط ماكدونالدز، هذا ما يفعله البدو الآن.

(تأبط شرا هو أحد صعاليك العرب وشعراء الجاهلية، كان يتأبط سيفه ويخرج إلى البادية، فلما سِئلت عنه أمه قالت "تأبط شرا وخرج"، فاشتُهر به، والوانيت هي السيارة ربع نقل)

***



نسمع كثيرا عن ترف السعوديين وإسرافهم، لكن هذا الموقف مختلف جدا. دعاني فهد عبيد وصديق آخر لنا إلى الغداء في أحد مطاعم جدة، وكان الطعام كثيرا، وبعد أن فرغنا، تبقى منه الشيء الكثير، فطلب من النادل أن يضعه له في علبة، ووجّه كلامه لنا قائلا: "لا عيب في أن نستفيد من باقي الطعام بدلا من إلقائه في القمامة، خصوصا وأننا مسئولون عنه.

***

الحاج محمد الحلاق

له طيبة الملائكة وسلوك الصالحين، لا يترك فرضا ولا نافلة، يصلي الجماعة في المسجد المجاور، يحلق للكبار والصغار ولا يماري في الأجرة ولا يشتط، بل يأخذ ما تيسر من الناس. وكان يحلق رؤوسنا ونحن صغار، وبعد الحلاقة يطلب الأجرة وكانت خمسة مليمات، ولما ارتفعت أصبحت قرش صاغ. كنا نعتذر له وأن الوالد سوف يمر عليه ويعطيه، وبالطبع لا يحدث، وهو لا يعيد الطلب.

كان دكانه عبارة عن زاوية صغيرة لا تتجاوز المترين طولا ومثلهم عرضا، أرضيته من التراب المبلل بالماء صيفا وشتاء لأن الأرض في هذه المنطقة غزيرة التراب، ويعلق على الجدار مرآة ذات إطار خشبي عريض ملأتها الشقوق، يخيل إليك أنها مكسورة لكن ما هي إلا آثار الرطوبة والقدم أثرت على طلائها من الخلف، فبدا الجدار الأسود المبني بالطوب اللبن من شقوقها كأنها لوحة من الفن الحديث التشكيلي أو التشكيكي غير المفهوم، وانعكست تلك الرسوم على وجه من يحلق، فإذا نظر إليها الناظر خُيّل إليه أن وجهه مليء بالأخاديد والشقوق، ولكن قلما كان ينظر فيها الزبون لعلمه أنها لا تجدي، ويتوكل على الخالق ثم ثقته في الحاج محمد.

كان فارس حفلات الطهور بلا منازع؛ إذ هو من يقوم بالعملية الجراحية الدقيقة للأولاد، يأتي صباحا ويفرش قماشة سوداء غير لونها الزمن إذ هي في الأصل بيضاء، تحتوي على عدة الشغل من أمواس وآلات أخرى مجهولة، وهو يعتني بنظافتها ولا يعرف للتطهير جدوى.

وكان هو طبيب الأسنان الوحيد في البلدة، والعلاج الوحيد لديه هو الخلع؛ فهو لا يحسن غيره، لكن للحقيقة كان أبرع من يخلع الأضراس دون تخدير ودون ألم أيضا؛ إذ كان الصبية يفقدون الوعي قبل الخلع. الحمد لله أنني نجوت منه؛ إذ حضر إلينا في المستشفى طبيب للأسنان قبل أن أصل إلى مرحلة الخلع، ولم يكن أمهر منه إلا قليلا.



عز الدين حسين

أخونا عز الدين رجل خفيف الظل، حلو الحديث، طيب المعشر. في إحدى جولات الدعاية الانتخابية كنا سويا في نجع حمادي -وأهل النجع ظرفاء بالطبع وليس بالتطبع- وتأخرنا فأنهكنا التعب والجوع، فقال عز: "أنا آتيكم بطعام"، ولم يكن سوى صبي فاكهاني فقط مازال ساهرا، فدخل عز الدين المحل ودخلنا معه، وأخذ يتذوق الأصناف واحدا تلو الآخر، ويذكر في كل صنف عيبا؛ هذا فج، وذاك أصابه التلف، حتى ذاق معظمها وأوشك على المغادرة، وأدرك الصبي في المحل أن الزبون لن يشتري، فمد يده إلى باذنجانة سوداء صغيرة وقدمها إليه قائلا: "يا أستاذ يا أستاذ.. انت مدوقتش من دي"!

***

الشيخ محمد أبو زيد

هذا الشيخ الجليل من رجال الأزهر العاملين العاملين، أتى إلى قريتنا إماما للمسجد الكبير في أواسط السبعينيات، أيامها كان معظم الناس في غفلة عن الدين الصحيح كعامة أهل الريف في مصر، تتنازعهم الخرافات وتعشش في أذهانهم خزعبلات مدعي التصوف والشعبذة، وتسيطر عليهم طقوس وعبادات أضافوها إلى صحيح الدين، وتوارثوها دونما نظر أو تحقيق، ولم يصحح لهم هذه الخرافات لا رجل علم ولا رجل دين، إلى أن ظهر الشيخ أبو زيد، وكان ظهوره ضرورة، وبدأ دعوته رقيقا حييا رفيقا بالناس؛ لعلمه أنه يحاول إزالة عادات وعبادات خاطئة توارثها الناس وحافظوا عليها أكثر من حفاظهم على أصول الدين الصحيحة، وكانت معركة حقيقية تشبه كثيرا ما حدث في مكة قبل الهجرة، خصوصا من مدعي التصوف.

ذكر الرجل يوما أن كلمة "السلام عليكم" أفضل عند الله من أي تحية أخرى ويؤجر عليها المسلم، فحوّلها الحزب المضاد إلى أن الشيخ أبو زيد يحرِم "صباح الخير" و"مساء الخير"، و"سعيدة" أيضا.

أكاد أجزم أن الشيخ محمد أبو زيد أحيا أنفسا من الرمم؛ فقد نجح نجاحا تاما في التأثير في الشباب، وعلّمهم كيفية البحث والتنقيب عن العقيدة الصحيحة، ونفى كثير من البدع عن سلوكهم وعبادتهم، وشجعهم على الاطلاع على الكتب النافعة، وتحمّل في سبيل ذلك كثيرا من الإساءة والإهانة اللتين كانتا توجهان إليه أحيانا تلميحا وغالبا تصريحا، وبالرغم من ذلك واصل نشاطه وتوعيته للكافة بأسلوب أدبي

رقيق لا يخلو من الطرافة والبساطة، لكن هيهات؛ فلم ينجح هذا الأسلوب مع أساطين الحفاظ على تراث الأجداد من الزوائد في العبادات، حتى الأذان لم يكن يسلم من إضافاتهم. لكنه نجح أيما نجاح مع الشباب، الذين قدروه حق قدره وحفظوا له اليد التي أسداها إليهم. كان الشيخ حييا جدا، حتى أنه كان في مروره يلقي السلام على الناس بصوت خفيض، قد لا يسمع الجالسون على قارعة الطريق صوته من ضجيج السابلة وصياح الأطفال والباعة، فيدعي قالوه أنه متكبر لا يلقي السلام على أحد.

كان بعيدا عن الحشو وعن التشدد والتكلف، وكان معظم همه تنقية العبادات مما لحق بها من زيادات لم تثبت في السنة، وتنقية العقيدة مما خالطها من تشويه. بالرغم من أن هذه الحقبة كانت حقبة الجماعات الإسلامية بلا نزاع، وكان الجو العام مساندا لنشوئها وترعرعها، إلا أنه كان بعيدا عن أي فكر يحمل جانبا سياسيا سوى توضيح الدين الصحيح للناس.

أعتقد وأتمنى أن يكون المجهود الذي قام به الشيخ الفاضل محمد أبو زيد في ميزان حسناته، وأن يتجاوز الخالق جل وعلا عن هفواته بسبب ما أنقذ من أنفس أعادها إلى الدين الصحيح، وما ترك من أثر طيب في نفوس تابعيه، وهؤلاء أيضا تركوا أثرهم فيمن يعرفون.

الأمن والأمان

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ⁂ فلا تظنن أن الليث يبتسم



في الثمانينيات والتسعينيات، نشط جهاز أمن الدولة كثيرا عما سبقه من حقب، وزادت صلاحياته وتنوعت مصادره، لكن في الأغلب الأعم لم تكن معلوماتهم التي يجمعونها عن المطلوبين دقيقة، وأحيانا كانوا يطلبون الموتى، بل كانت في بعضها مثيرة للسخرية، منها هذه الحادثة:

كان في قريتنا شاب اسمه علمان، دمث الخلق طيب المعشر، وكان يقتصر نشاطه الدعوي على تحفيظ الصبية القرآن، ولكن في نظر مخبري أمن الدولة هذه معصية تعد لديهم من الموبقات، فكان أن ذكروه في أحد تقاريرهم، وبالصدفة هذه القرية يكثر فيها هذا الاسم، ولما لم يذكر المخبر تفاصيل كافية عن المطلوب، وكان سَمِيّه في القرية رجل تجاوز الثمانين اسمه أيضا علمان، لكنه نشيط وخفيف الروح هو وأهل بيته، ولديهم من خفة الظل وسرعة البديهة ما يضحك الثكالى.

صحا أهل القرية ذات سحر قبيل الفجر -وهو الموعد المفضل لأمن الدولة، وإن موعدهم كان غراما- صحوا على هدير محركات سيارات يشق الآذان، وضجيج الجند بأحذيتهم الثقيلة وأسلحتهم اللامعة، يحاصرون منزل الرجل حصارا منيعا -ولا حصار طروادة!- طلبا للقبض عليه، وضاق بهم الشارع الضيق أصلا والمؤدي إلى منزل الرجل، ودفع

الضابط الباب بقدمه ودلف إلى الداخل ينادي: "فين علمان!؟" فأفاقت زوجة الرجل من النوم وأمسكت بتلابيب زوجها تنهره: "انت دخلت مع السّنية!؟" (السّنية هذه معناها الذين يتبعون السنة بلسان العامة) مع كم كبير من الكلام اللاذع.

تبين بعدها أن المطلوب هو علمان الآخر بعد أن أوشك الرجل على فقد الوعي.

***

عندما قام صدام حسين وجماعته من حزب البعث بمحاولة اغتيال عبد الكريم قاسم في العراق وفشلت المحاولة، بعدها ولأسباب سياسية، أصدر عبد الكريم قاسم عفوا عن صدام ورفاقه، فاعترض الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري على هذا العفو قائلا:

هب الأمر معكوسا وخذ مثلا ⁂ لاقتيد زيد باسم زائدة والمبتغى عمر

وقد كان ما تنبأ به الشاعر الكبير في العراق، وفي كافة الأقطار العربية، فكلنا في الهمِّ شرق.

***

عندما قام السادات باعتقال ١٥٣٦ شخصا قُبَيل اغتياله بقليل، كان منهم الأستاذ محمد حسنين هيكل، وفؤاد سراج الدين، والشيخ عبد الحميد كشك، وغيرهم من النخب السياسية والدينية. تم القبض على ما يصل إلى ٩٠ فردا من قريتنا فقط، والتي لم تكن تحولت إلى مدينة بعد. لاحظ النسبة بين القرية ومصر بالكامل!

كان أمن الدولة يسجل ويراقب كل من يرتكب (معصية) الصلاة في المسجد، وأحيانا من يمر بجواره؛ على اعتبار أن هؤلاء القوم لا يهنأ جليسهم في عرفهم.

بل إن أحد المعتقلين المشهور عنهم الإدمان، قُبض عليه بتهمة الاشتراك في جماعة دينية وهو سكران، وانطلق والده خلف (البوكس) يسترحم الضابط بقوله: "يا بيه ده لو عصرته يخر خمرة!"

***

في تسعينيات القرن الماضي، ذهبت لتجديد تصريح العمل الخاص بي من إدارة تصاريح العمل في حي الدَّرَّاسة بالقاهرة، كما كان يحدث بشكل روتيني، ففوجئت بأن لديهم دعوة لي لزيارة مقر شعبة أمن الدولة أولا. كان يكفي في هذه الفترة لأي أحد أن يكون مطلوبا لأمن الدولة أن تجول بخاطره أفران هتلر، ووسائل التعذيب التي ابتكرت من أيام أبو مسلم الخراساني، نزولا إلى زكي بدر، مرورا بأحمد ابن أبي دؤاد (على وزن فؤاد)، الذي يعد أول من ابتكر التعذيب بالماء الساخن والبارد، وكان يقول: "إن الرحمة خَوَرٌ في الطبيعة" (وبالمناسبة فقد قُتِل باختراعه).

سألت أحد معارفي من الضباط في إدارة تصاريح العمل، فتلطف بالإجابة قائلا: "لو أن الأمر خطير لأحضروك بأنفسهم. لكنهم طالما طلبوا منك زيارتهم فالأمر هين". بالرغم من ذلك لم يفرخ روعي، وراحت تنتابني الهواجس، وفي النهاية قررت أنه لا مفر من زيارتهم، والاستئناس بحديثهم الذي ربما يكون شيقا؛ حسب الطرفة التي تقول أن رجلا كان يريد المرور في حارة ضيقة، وكان بهذه الحارة جذع شجرة متهالك يعترض

بين بيتين ويوشك على السقوط، وكان الرجل مترددا في العبور حتى لا يسقط عليه الجذع فيقتله، وفي النهاية تقدم الرجل وجلس تحت الجذع مباشرةً وقال: "الآن قد استرحت من الشك"!

ذهبت إلى مقر شعبة أمن الدولة، أتقدم خطوة وأؤخر اثنتين. وكان المبنى يقع في شارع طويل، تحتل معظمه المصالح الحكومية، والمبنى يقف منفردا منتصبا كأنه مارد من مردة القصص المرعبة التي تحكيها الجدَّات. قبل المبنى بمسافة طويلة تمددتْ في الشارع مطبات مرتفعة، تأخذ من كل سيارة مارّة أثرا، وتبدو من بعيد كجثث القتلى. ويقول الخبثاء أن هذه المطبات لتأمين الأمن لأمن الدولة! وأعتقد أنها نوع من التعذيب الابتدائي وخض القلب قبل الدخول إليهم؛ حيث أنك في غمرة الشرود سوف (تاكل) المطب.

دلفت إلى الاستقبال، وجدت غرفة فسيحة يجلس فيها من كل شرائح المجتمع زوجين اثنين وربما أكثر، يكفي لكي تحصل على جرعة من الرعب أن تنظر إلى سحنهم المأخوذة والباهتة، والرعب البادي على وجوههم كأنهم بُعِثوا ليوم الحساب. تقدمت إلى موظف (مخبر) الاستقبال، وذكرت له حاجتي، فطلب البطاقة الشخصية، وأومأ إلى بنظرة ملؤها التعالي أن "انتظر".

فانتظرت أرمق الجالسين بطرف عيني، وهم كذلك. كثير منهم ذوي تهم ظاهرة على وجوههم وجباههم، ومنهم نساء منتقبات ومحجبات، وتلك أيضا تهم واضحة، لكن الأغرب أني رأيت منهن سافرات أنيقات ذوات

أصباغ وألوان. أيقظني من شرودي صوت مخبر الاستقبال المتأفف يدعوني لمقابلة الضابط.

تقدمني وتبعته إلى دهليز طويل ضيق، في نهايته درج خشبي عتيق يقود إلى الطابق الثاني، ثم صالة فسيحة ثم مكتب الضابط. طرق المخبر على باب المكتب طرقا خفيفا، فسمع الموافقة من الداخل.

مكتب الضابط مرتب من الداخل، ويبدو كمكتبة أحد الأدباء أو الشعراء أو رجال الدين، أمامه مباشرة مصحف كبير، وبجواره أمهات كتب الفقه. أما الضابط نفسه فعليه سيماء الودّ، وتلمح على جبينه أثرا خفيفا من السجود، مما قطع فورا تصوري السابق عن ضباط أمن الدولة، وبدأت أتهم نفسي بظلمهم، وبأنهم خير خلق الله كلهم.

أشار إليّ بالجلوس، فجلست على مقعد وثير أمامه، وبدأ الحديث متلطفا، وسألني بضعة أسئلة عن فترة بعيدة أصبح جلّها في طيِ النسيان بالنسبة لي، وسألني عن أناس لم ألقهم في حياتي مطلقا وإنما سمعت أسماءهم عرضا أو قرأتها في الصحف.

شجعني بأسلوبه أن أسأله "لماذا استدعيتموني؟" فقال لي: "هل تعرف رجلا اسمه حلمي عبد المعين؟". كان هذا الاسم يتردد كثيرا في منطقتنا، لكنني لم ألتق هذا الرجل أبدا، ولم أر له صورة مطلقا، لكن شاءت الظروف أن أك مع صديق لي في زيارة إلى المدينة نتسوق، وأزفت صلاة الظهر فصليناها في زاوية صغيرة على نهر النيل، وبعد انقضاء الصلاة قال لي صديقي هذا: "أتدري من كان الأمام؟ قلت: "لا" قال "هو حلمي عبد المعين"

كانت هذه هي كل صلتي بهذا الاسم، فذكرت له ذلك. قال: "نحن الآن نعلم أن تقاريرا كتبت عن كثير من الناس لم يثبت لهم أي نشاط، وبالتالي نحن نستدعيهم لنتأكد من ذلك ونغلق هذه الملفات التي لا ضرورة لها.

سمح لي بالمغادرة على وعد أن يرفع اسمي من القائمة، قضيت في هذه المقابلة ما يقرب من الثلاث ساعات فقط، وعندما خرجت من الباب الأمامي شعرت كأنني أرى الشارع لأول مرة!

***

كثير من الناس في هذه الدنيا ليس في جعبتهم من الحسنات إلا ما جمعوه قسرا وخصما من حسنات الطيبين!

لا تصدق كل ما تسمعه

سمعت كثيرا عن فظاظة الشرطة السعودية وسوء تعاملهم خصوصا مع الأجانب. وحدث أن كنت في الرياض في زيارة عمل لمدة ثلاثة أيام، وأتيح لي بعض الوقت لزيارة أخونا أحمد سند، واقترحت عليه أن نزور الخرج لمقابلة بعضا من إخواننا العاملين هناك فرحّب. وكنت قد استأجرت سيارة لذاك الغرض، وفي طريق العودة وجدنا مفترق طرق، فلم ندر أيها نسلك إلى الرياض، وحدث أن سرنا عكس اتجاه السير، ولسوء حظنا انشقت الأرض فجأة عن سيارة دورية تبرق وترعد بالأحمر والأزرق في مواجهتنا، فأسقط في أيدينا وعرفنا أنه لا بد من المخالفة. قلت لأحمد: "دعني أتصرف"، واقتربت من سيارة الدورية إلى جهة السائق وبادرته مسرعا: "يا أخي إحنا تايهين.. ممكن تدلنا على طريق الرياض؟" فأجاب بسرعة وشبح ابتسامة يلوح على شفتيه: "برضو حتاخد مخالفة"، ثم أردف: "سر خلفي". وبعد فترة وجيزة أسلمنا إلى طريق الرياض وتوقف قائلا لنا: "هذا هو طريق الرياض سلّمكم الله". وانصرف دون أن يحرر المخالفة.

ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

كان أحد المحامين مشهورا بين أقرانه بالمقدرة العالية والتمكن من مهنته، لدرجة أنه يستطيع تطويع القانون لصالح موكله على أي جهة يريد، ويستطيع بدهائه أن يحصل على الحكم الذي يقصد، لدرجة أنه يستطيع أن يحصل على الحكم ونقيضه. وكان له تلميذ يدنيه من مجلسه ويهتم به، غير أنه يحجب عنه كثيرا من الأسرار التي تمكنه من أداء عمله كما يريد، فكان أن طلب منه التلميذ أن يعلّمه الحيل القانونية التي تمكنه من قلب الحق باطلا والباطل حقا، فأجابه إلى طلبه بشرط أن تستغرق فترة التعليم أربع سنوات، يحصل بعدها الأستاذ على أربعة أفدنة من التلميذ هي كل ما يملك، فوافق التلميذ على ذلك وبدأ تلقي الدروس.

مرت السنون الأربع وحان وقت التخرج، فطلب الأستاذ من التلميذ أن يعطيه ما اتفقا عليه، فقال التلميذ: "نعم لكن اسمع مني أولا.. إذا أنا أقنعتك أنه لا حق لك في الأربعة أفدنة فقد سقط حقك فيها ولا تطالبني بشيء، وإن أنا لم أستطع أن أقنعك بذلك فهذا دليل على أنني لم أصل إلى النتيجة المطلوبة من الاحتراف، وأنك لم تبذل كل جهدك في تعليمي، وبالتالي فلا حق لك فيها أيضا.

ترى ماذا يكون رد الأستاذ؟

قال الأستاذ: "إذا أنت لم تقنعني أنه لا حق لي فيها، فقد وجب عليك أن تعطينيها.. وإذا أنت أقنعتني، فقد بلغت الغاية في العلم، وبذلك يجب أن تعطيني إياها أيضا"

***

رأى أبو المعمارِ الشاعرُ أميراً جائرًا يصلي. فأنشد يقول:

قد بُلـيـــنا بأميرٍ ⁂ ظَلَمَ النَّاسَ وسبّحْ

فهو كالجزّارِ فينا ⁂ يذكــرُ اللهَ ويـذبَحْ

***

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

بالرغم من الشهرة التي نالها الأستاذ الجاحظ، ففي اعتقادي أنها دون حقه ودون مقامه الرفيع. هذا الرجل كتب كلاما تقرأه فتشعر بأن حبره لم يجف بعد. وهو كاتب سياسي بامتياز، وصحفي لا يشق له غبار، صاحب فكر اجتماعي، وله آراء في علم النفس، وأديب لم يجارِه أديب لا في عصره ولا حتى كتابة هذه السطور. كلما قرأت له اكتشفت جانبا من فكره لم ألاحظه من قبل.

ولقب (أستاذ) لو أطلق مجردا في مجال الأدب، في القرن الأول الهجري، لا يستحق في اعتقادي أن يُطلق إلا على أبي عثمان الجاحظ، ومن بعده في الفلسفة ابن سينا، ونزولا إلى العصر الحديث في الصحافة لا يليق إلا بمحمد حسنين هيكل، وفي الفكر العقاد، وفي الموسيقى عبد الوهاب. هؤلاء هم إذا قلنا الأستاذ مجردا فقط يتجه إليهم الفكر دونما عناء.

***

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ⁂ فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

نعى الناعي إلى سمعي خبرا صادما، وفاة الصديق الصدوق عادل محمود نقل. قضى في حادث سيارة على طريق الدمام حفر الباطن يوم الجمعة الموافق ٣٠ نوفمبر ٢٠١٢.

وعادل لمن لا يعرفه، له سمت الصالحين وأعمال الصحابة، يمازح الصغير ويحترم الكبير، لا يكتم علما، ولا ينشر سوءة، يذكر الحسنة وينسى الإساءة. كان وجوده دليلا على أن الفضيلة لا تموت.

مضى وكأنه نسمة طيبة مرت في جو السماء، لم يترك في نفوس سامعي الخبر إلا الأسى والحزن الشديد على فقده. خرجت البلدة عن بكرة أبيها لتشييعه، ومعهم بعضا من شباب القرى المجاورة. في واجب العزاء كلما التقت عيناي بأحد إخوانه خنقتني العبرة. ليس هذا رثاء له، وإنما هي نفثة حرّى لم أستطع بثها إلا بعد أكثر من أسبوع على هذا الحادث الذي فجع كل من عرفه أو سمع به. رحمه الله وتجاوز عن خطيئاته وزلاته، وغفر له وألهمنا وأهل بيته الصبر، ولا أقول السلوى لأنه لا ينسى.

لغتنا الجميلة

الطبيعي أن ترتقي الإنسانية في آدابها كما ترتقي في علومها؛ فإذا كان الحال هكذا، فما بال أدبائنا وصحافيينا وقضاتنا يكتبون وينطقون بلغة تشبه الثوب المرقع، كما قال عنها حافظ إبراهيم وهو يشكو حال اللغة العربية بين أهلها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ⁂ وناديت قومي فاحتسبت حياتي

أيهجرني قومي -عفا الله عنهم- ⁂ إلى لغة لم تتصل برواةِ

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ⁂ مشكلة الألوان مختلفات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ⁂ فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

وقد كان حافظا يشكو حالها وفي عصره أساطين اللغة وأرباب البيان، فماذا يكون حاله لو أنه بقي إلى عصرنا هذا!؟ إنك لتقرأ للكاتب من هؤلاء فتود لو أنه أعيد إلى المدرسة من جديد. المشكلة أنه لو عاد فلن يجد مدرسين أكفَاءَ -إلا قلّة- يلقنونه لغة لا تبلى جدتها، لكنها مرضت على ألسن أهلها.

وإنك لترى الخطيب على المنبر ينفخ أشداقه وتنبو عروقه، وهو يرفع وينصب بإرادته، هذا غير أن يُبدل الثاء سينا والذال زايا على غير ما درج عليه سيبويه، الذي لو قدّر له أن يبعث من جديد لسماع هذه اللغة لعاد إلى لحده من فوره حسرةً على اللغة الشاعرة، كما وصفها العقاد في كتاب له.

وإذا كان لكل صانع عُدة يعتدها للقيام على صنعته، فإن اللغة من أهم العُدد، بل أهمها على الإطلاق في حق من بين يديه مصائر العباد والبلاد -أقصد أرباب القانون على اختلاف درجاتهم- فقد يتكفل حرف واحد بإزهاق روح أو إطلاقها.

رؤي أحد المتشدقين قبل تنقيط الحروف يقرأ القرآن ويتمايل ويئن من التخاشع، فقيل له ما الذي أزعجك؟ قال هذه الآية (يبدل الله سِنانهمْ خشبات) فنظر السائل فإذا به يقرا قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» [الفرقان ٧٠]

***

يقولون أن اللغة الإنجليزية ولدت في بريطانيا، ونمت وترعرعت في أمريكا، ومرضت في الشرق الأوسط، وماتت في الهند!

أحمد الشنهوري

كان مدرسا للغة العربية، متمكنا من لغته ومن عصاه أيضا؛ إذ كان مشهورا بالقسوة، ذا شخصية قوية لم يُر مبتسما قط، لا يعرف من العقوبة إلا الضرب القاسي، شجّعه على ذلك أولياء الأمور؛ فكانوا يقولون له "لك اللحم ولنا العظم"، يعني (اضرِب ما شئت بما شئت على ألا تكسر عظما)، فكان إذا أخطأ التلميذ أصبح ككرة القماش في يد عملاق مجنون يفعل بها ما شاء، فكان يضرب بالعصا وأحيانا بقبضة يده في بطن الصغير، وقد ضرب يوما أحد الصغار بركبته في بطنه فأصيب بالإغماء. وكان -رحمه الله- من ضمن الأسباب التي أدت إلى تفلت كثير من التلاميذ، وتركهم مقاعد الدراسة إلى العمل في الحقول مع ذويهم؛ حيث وجدوا لسعة الشمس على وجوههم أخف وطأة من لسعة العصا فوق أجسامهم الغضة.

دخل إلينا أول حصة ونحن في الصف الرابع الابتدائي، وقرأ علينا قصيدة (يا نيل أنت مُنانا)، وطلب إلينا حفظها؛ لأننا سوف نلقيها على مسامعه الشريفة غيبا في اليوم التالي.

وبالطبع لم يحفظ القصيدة أحد على الإطلاق؛ لأننا كنا نسمع أنه قاس ولكننا حتى هذه اللحظة لم نر من كراماته شيئا ولم نجربه، كما يقول المثل (تسمع بالمعيدي خيرا من أن تراه).

في اليوم التالي أقام أول تلميذ لِيَنشدَ القصيدة، وكانت له طريقة معينة في تسميع النص؛ إذ يطلب من أحد التلاميذ أن يبدأ الإنشاد، وفي منتصف القراءة يأمره بالصمت، ويأمر غيره ممن قد يكون شاردا أن

يُكمل من حيث توقف الأول. طبعا البيت الأول كلنا يحفظه، وبالتالي نجا أول تلميذ فقط؛ إذ طلب الأستاذ ممن يليه أن يكمل. ولما وقفنا جميعا لا نحفظ شيئا نادى على الفرّاش، وكان الفرّاش يعلم ما يريد، فأتى له بمجموعة من العصي مقطّعة بعناية، ولها مقبض حتى لا تؤذي يده الكريمة؛ إذ لم تكن تكفيه عصا واحدة، وذلك من إحدى النخيل المجاورة للمدرسة؛ فقد كانت المدرسة ككل مدارس القرى وسط الزراعات.

وأومأ إلينا أن يخلع كل منا حذاءه، ويضع قدميه على الدرج، وقال سوف أضرب كل منكم عشر ضربات، فمن توجع أو تأوه بدأت العد من جديد. لم يك يضرب كباقي المدرسين، بل يرفع يده بالعصا إلى ما فوق كتفيه ثم يهوي بها بكل ما أوتي من قوة على القدمين الصغيرتين المرتكزتين على الدرج، فتهبط كأنها صاعقة من نار. فمنا من كتم ألمه وغيظه، ومنا من وصل العدّ به إلى أربعة وثلاثين ضربة تُسيل الدماء من الأقدام الصغيرة في عز البرد القارس. ثم طلب إلينا النزول إلى الفناء لاستكمال حصة التعذيب بالجري في الفناء حفاة في دائرة، ومن يلحق بزميله يضربه على قفاه؛ وكانت الحكمة من ذلك أن الجري يمنع تكون فقاعات في القدمين بعد هذا الضرب الأليم.

كانت حصة التعذيب، أقصد حصة اللغة العربية، تنتهي عادةً بإصابة أحد التلاميذ بجرح قطعي في اليد أو القدم، وأحيانا الوجه، ناهيك عن الكدمات والرضوض والسحجات، كأننا في معركة ولسنا في مدرسة. وإصابة كل التلاميذ -حتى من لم يُضرب- بجرح نفسي غائر لا يلتئم على مر السنين.

ذات صباح مشرق صحو وبديع ورائع، قل ما شئت في وصف حسنه وألقه، وفي طابور الصباح، أعلن أن الأستاذ أحمد الشنهوري نُقل إلى القاهرة حسب طلبه، فكاد السرور أن يقتلنا أو على الأقل يغشى علينا من فرط السعادة.

لم يكن هو المدرس الوحيد الذي يعتمد التعذيب وسيلة للتعليم، لكنه كان أكثرهم قسوة، وأوفرهم حظا في ابتكار أساليب التعذيب ووسائله.

كان يرى أن الضرب هو الوسيلة الوحيدة الناجعة للتعليم، وكان يكره الدروس الخصوصية كرها شديدا، ويضاعف جرعة الضرب لمن يتلقاها، ويعتقد أن الدرس للغبي والبليد فقط، وهذا ليس مجاله المدرسة بل الحقول.

أتى إلينا بعده مدرس آخر للغة العربية اسمه حمد محمد عثمان -رحمه الله. مثالا للمدرس كما ينبغي أن يكون؛ ذا صوت جهوري عميق مطرب، يقرأ الشعر يترنم به ويصدر جرسا موسيقيا عذبا، تتمنى معه ألا ينتهي إنشاده. ولو سارت به الأيام مسيرا آخر لكان له شأن في عالم الموسيقى. حفظنا من إلقائه قصيدة من أول مرة، ومازال بعضا من أبياتها عالقا بذهني. مطلعها:

هيـــا للسنبل نحصده ⁂ في الليل على ضوء القمر

أصوات المنجل تغريد ⁂ كاللحن يدب إلى القلـب

فيما بعد وجدت في المواد التي يدرسها أبنائي مادة تسمى (Character Building)، وتعني بناء الشخصية على النقيض تماما من أسلوب الأستاذ أحمد الشنهوري، رحم الله الجميع.



رسمة للفنان (شريف عرفة).

سمير وميكي، وكمان تان تان

في بداية السبعينيات الميلادية، كنت أوفر مصروفي كاملا لشراء مجلات الأطفال (سمير) و(ميكي)، وكانت الواحدة منهما بخمسة قروش، و(تان تان) أحيانا وليس دائما؛ لأنها كانت أسعرهم -أعلاهم سعرا- وكنت أستمتع كثيرا بقراءتهم؛ إذ لم تكن تتوفر لنا مكتبة عامة أو خاصة في البلدة للاطلاع، أما مكتبة الثقافة الجماهيرية اليتيمة فكانت في قنا، وعلى من يريد زيارتها تجشم عناء السفر إليها.

حدث أن نشرت مجلة سمير مسابقة بوليسية مسلسلة اسمها (أشرف الشريف)، ورصدت لها جوائز، ومن ثم فقد اشتركت في المسابقة وأرسلت لهم الحل، وكنت أترقب بلهفة شديدة نشر أسماء الفائزين بالمسابقة، وكم كانت سعادتي كبيرة إذ رأيت اسمي من بين الفائزين! وأرسلت إليّ الجائزة في طرد أنيق على مكتب بريد القرية، وكان وكيل المكتب رجل نحيف القد، دقيق الملامح، تكاد أنفه تلامس شفته السفلى من طولها، يضع على أنفه نظارة كبيرة سوداء الإطار تخفي جانبا كبيرا من وجهه المتغضن الأسمر، ويلبس بزة سوداء كاملة، وربطة عنق صيفا وشتاءَ، وكان دقيقا في عمله. استدعاني إلى مكتب البريد عن طريق الطوّاف لكي أستلم الطرد، وذهبت إلى مكتب البريد أَتَحَرّقُ شوقا، وكان في بيت قديم متهالك مستأجَر، مسقوف بجذوع النخيل، يخيل إلي أنه سوف يسقط علينا في كل مرة دخلته فيها. وقفت أمام النافذة التي يقف أمامها مرتادي مكتب البريد، فلما رآني فتح لي الباب، وكان من غير المألوف أن يدخل أحدا إلى مكتب البريد من الجمهور، وأجلسني قبالته على كرسي

خشبي قديم يصدر أصواتا غريبة كلما حاولت الاعتدال في جلستي، وبدأ التحقيق معي "كيف اشتركت في هذه المسابقة؟ ومن أين اشتريت المجلة؟ وكيف علمت أنك فزت؟" وأسئلة كثيرة متلاحقة. ولما انتهى التحقيق أحضر الطرد، وكان عبارة عن علبة كرتون كبيرة مغلفة بشكل أنيق، وفض غلافها رغما عني لأنني لم أكن أود أن يفتحها هو. المهم فتحها ودس يده داخل الطرد بحرص شديد. كان قلبي يرتجف من شدة الإثارة، والعرق البارد يتصبب من جبيني، وأخرج من بين قصاصات الأوراق الملونة التي تحمي الطرد (الجائزة)، وكانت راديو ترانزستور صغيرا يملأ راحة اليد ماركة فاسكو -طبعا انقرضت هذه الماركة الآن ولم يعد لها وجود- كان يباع حينها بستة جنيهات، وكانت فرحتي به غامرة وأنا أغادر مكتب البريد متأبطا هذه الجائزة الكبيرة، وفي طريقي إلى البيت تكاد قدماي لا تلامسان الأرض من فرط السعادة والإثارة ولدهشتي كان كل أهالي البلدة يعرفون عن الجائزة ويهنئونني بحصولي عليها.

علمت بعدها أن هذا الوكيل بدأ يداوم على شراء مجلتي سمير وميكي لأولاده كلما صدرت.



مجلات لها بريق وتاريخ

كانت كثير من المجلات تقوم مقام التثقيف غير المنتظم لكثير من أبناء جيلي، بل وتتلمذوا عليها، منها مجلة الهلال العريقة، أدركتها أيام كان كمال النجمي رئيسا لتحريرها ومن بعده مصطفى نبيل. كانت تتميز بأنها تشفي غليل كل مثقف ومتطلع إلى الثقافة، وكانت تستكتب أعلاما في مجالاتهم، بالإضافة إلى أنها كانت تخصص لكل باب من العلم طرفا. نافستها في ذلك مجلة العربي الكويتية أيام كانت رئاسة التحرير للمرحوم أحمد زكي ثم الكاتب المتألق حتى الآن -رحمه الله- أحمد بهاء الدين. وأقول حتى الآن إذ أن كتاباته مازالت غضة حتى بعد رحيله. ثم تولى رئاسة تحريرها بعد ذلك أحد كبار مثقفي الخليج، هو الدكتور محمد الرميحي، لكن بريقها خفت قليلا بعد ذلك. وبالرغم من طباعتها الفاخرة وصورها الملونة، فإنها لم تتفوق على طرافة وعمق الموضوعات التي كانت تُنشر في الهلال أيام عزها.

كانت أيضا نافذتنا الواسعة على الآداب الغربية وأساطير اليونان مجلة الجديد لصاحبها ورئيس تحريرها الدكتور رشاد رشدي -بالمناسبة، يقولون أنه خال الكاتب المبدع أحمد بهجت رحمهما الله- والتي اختفت بعد رحيله.

كانت مصر تموج بالاتجاهات الفكرية المختلفة، بل والمتناقضة في بعض الأحيان، وكانت هناك أيضا بعض المجلات الغازية التي تروِّج لفكر منشئيها، مثل المجلة الألمانية الشرقية أيام حكم الشيوعيين إبّان انفصال الألمانيتين إلى شرقية وغربية، وكان رئيس الشرقية إريك هونيكه والذي

كانت صوره تملأ كل أعدادها، وصفحات الغلاف، والصفحات الداخلية، حتى تظن أنهم يضعون المقالات في الفراغات بين الصور؛ والمجلة السوفيتية، والصينية، وحتى الكورية، ومجلة الإخاء الاجتماعية الإيرانية، التي تشبه الفيس بوك في حينها، والتي توقفت بعد ثورة الملالي في طهران واستبدلوها بمجلة المنتدى التي لم يصل منها مصر إلا عدد واحد يتيم، وانقطعت بعد ذلك نتيجة لخلاف السادات مع نظام الحكم الإيراني الجديد. أما أعداد الشبكة والموعد فكنا نكتفي بتصفحها لدى صالونات الحلاقة.



آه من الروتين!

في عام ٢٠٠٢، كنت بصدد إنشاء وكالة لخدمات التسويق في القاهرة، وكنت في حاجة لبعض المعلومات الإحصائية التي تمكنني من معرفة السوق بشكل جيد، فقيل لي "اقصد مكتبة مجلس الوزراء ودعم اتخاذ القرار"، وكان لديهم كتاب (وصف مصر) بالمعلومات، وأعلنوا عنه على موقعهم بالإنترنت، فقصدتهم لأطلب نسخة من الكتاب، ففاجئني الموظف بالآتي: "أولا: لكي تطلب الكتاب يجب أن يتم من خلال شركة أو مؤسسة أو أي كيان قانوني مصري.

ثانيا: لابد من خطاب رسمي لطلب الكتاب.

ثالثا: الانتظار مدة خمسة عشر يوما لحين البت في الطلب بالموافقة أو بالرفض"

ولما أبديت استغرابي للموظف، قال إن هذا الكتاب مصنف.

سألت عن الكتاب الإحصائي السنوي، والذي تطبعه الدول كافة لمن يطلب، ففوجئت بنفس الطلبات.

الغريب في الأمر أنني بحثت عن المعلومات المطلوبة على الإنترنت، فوجدتها بشكل أكثر تفصيلا مما كنت أطلب، وعلى موقع وكالة المخابرات الأمريكية على الشبكة!!

بعدها ذهبت إلى دبي في زيارة عمل، وكنت أريد نفس المعلومات التفصيلية من وزارة الصحة، وأخذ موافقتهم على تنفيذ برنامج تعليمي تثقيفي في وزارة الصحة. قمت بزيارة إلى مكتب وكيل وزارة الصحة

لأحصل على ميعاد لمقابلته، فقال لي مدير مكتبه "بإمكانك مقابلته الآن"، واستأذن لنا ودخلنا عليه.

استقبلنا الرجل هاشًّا باشًّا، وزاد ترحيبه لدى علمه بأنني مصري، وكان قد تلقى تعليمه في القاهرة، ويعتز جدا بالفترة التي قضاها فيها، وتحدث طويلا عن ذكرياته فيها، وكيف أنه كان يشتري هدايا لأهل بيته وأصدقائه من الملابس القطنية المصرية المشهورة بجودتها، بل وفكر في أن يتاجر فيها كل إجازة، ونفذ فكرته وكان يبيعها لأصدقائه وزملائه، ثم أراد أن يتوسع فيها بالاستيراد بشكل رسمي؛ لكن بعدها تغضَّن وجهه وتغيرت ملامحه، وتحدث بأسى قال: "أغرقوني في الطلبات والموافقات التي لم أستطع تلبيتها ولا النفاذ من دهاليزها، وبالتالي قصدت قبرص فوجدت فيها نفس المنتجات التي أردتها، وبنفس السعر تقريبا. وعلى استعداد أن يصدروها إلى دبي دون حاجة إلى الدخول في دهاليز الإجراءات الروتينية".

ذكر هذا الرجل أن الإماراتيين ليست لديهم أي عقد تجاه الدول التي تقدمتهم بحضاراتها، وإنما يتواصلون مع الجميع، وإن كان حسب تعبيره هو: "مصر لها الأولوية".

عند نهاية المقابلة، طلبت منه نفس المعلومات الإحصائية المزمنة، فقال لي: "إننا نطبعها ونوزعها مجانا.. تجدها في القاعة الأمامية للزوار.. خذ منها ما شئت".

الثقافة والتجارة

في مطلع التسعينيات، كنت صديقا لمدير تحرير إحدى المجلات الثقافية العربية الأسبوعية، وهي قديمة الصدور لكن انتشارها كان محدودا. كان هذا الرجل ذا ثقافة رفيعة، واسع الاطلاع، بعيد الغور؛ وذكر لي أنه يود إدخال الكلمات المتقاطعة إلي المجلة، وطلب منى إعداد بعضا منها، فلبيت رغبته عن طيب خاطر وبلا مقابل؛ فقد كانت الكلمات المتقاطعة إحدى هواياتي من قديم، وخصوصا التي تنشرها الأهرام. ونُشرت إحدى الكلمات التي أعددتها لمرة واحدة في تلك المجلة، ولما سألته "لماذا لم تنشر البقية!؟"، سأل أحد المحررين لديه والمسئول عن نشرها فقال: "لقد وجدت فيها بعضا من المعلومات تحتاج إلى ثقافة عالية من القراء، ونحن نريد أن تكون في مستواهم وليست أعلى منهم"، فقال له: "يا أستاذ، مهمة المجلات الثقافية أن ترتفع بوعي القراء وثقافتهم، لا أن تكون في مستواهم، وإلا ما فائدتها!؟"، فتحدث المحرر عن التوزيع والانتشار وما إليهما، ولم نصل إلى نتيجة، ولم تنشر بقيتها، ولم أقدم له بديلا عنها.

العلاقة التي لا تنفصم
رغم أنف الصحفيين

في خضم أزمة صحفية صفراء حدثت في التسعينيات بين بعض الصحف في مصر والسعودية، بخصوص الحكم على طبيب مصري بالجلد، واستنفار الصحف الصفراء من الجانبين لمشاعر الحماسة والثأر، قامت حرب شعواء بين الصحف في البلدين امتدت لفترة شهور، وكنا يوميا نسهر سويا مجموعة من المصريين والسعوديين يتناقشون في كل شيء دون حساسيات، وتتسع الصدور لكل نقد، ونضحك من القلب لكل طرفة. سألت أحدهم: "ما رأيك في هذه الحملات المتبادلة؟" فبادرني قائلا: "هل تغير شعورك نحوي بسببها؟" فأجبت بالنفي، قال: "ولا أنا.. هذا ردي".

كتب قيمة

في أواسط ونهاية السبعينيات الميلادية، كنت وصديقي سيد توفيق نقرأ كل ما تيسر لنا من كتب، وكان يتيسر له الكثير منها لكثرة مصادره، المعلوم أقلها والمجهول أكثرها، وأنا أدين له بفضل كبير في المعلومات الدينية في صبانا، وكثير من الكتب التي تنفي البدع عن الدين قرأتها مما كان يعيرني. وكنا نجلس الساعات الطوال نتحدث في كل شيء، من الجليل إلى التافه من الأمور، وكان هو يقرض الشعر قليلا، ولكنه لم يوله اهتماما كبيرا، في حين كنت أتذوق أنا قصائد الجاهليين والعباسيين. وكان لنا جار أسن وانحنى ظهره اسمه الحاج أمين، أوتي من خفة الظل الكثير، وهو شديد التمسك بالعادات، ولم يكن يتخلى عن أي بدعة في العبادات ولا يمكن إقناعه بتركها مهما أوتيت من حجة. وكان أبوه من رجال الأزهر، فكان يعد نفسه حجة في علوم الدين، بالرغم من أنه بالكاد يكتب اسمه. وكان يقول أن كل ما يفعله موجود في الكتب التي تركها له أبوه، وهي كتب كثيرة، فكان يثير طمعنا في هذه الكتب. وكنا نلح عليه إلحاحا شديدا أن يعطينا إياها حتى لو على سبيل الإعارة، وكان في كل مرة يرفض رفضا قاطعا، ويقول: "لا آمنكم عليها أبدا". وذات يوم رق قلبه لنا بعد كثير من الاستعطاف والإلحاح، وقادنا إلى الحاصل المخزونة فيه الكتب، والحاصل هذا غرفة من الطوب اللبن سقفه منخفض إلى ما فوق قامة الرجل قليلا، مسقوفا بجذوع النخل المغطاة بالجريد المجدول بالحبال والسعف ومغطى بالطين.

فتح أمامنا الباب الخشبي الضيق، فانبعث له صرير مرعب. دلفنا إلى أرضية من التراب الغزير الناعم كالدقيق، فغاصت أقدامنا فيها ونحن لا نتبين مواطئها؛ إذ كان الظلام دامسا إلا من بصيص ضعيف من الباب الموارب، بالرغم من أننا كنا في رابعة النهار ولا يوجد أي مصدر للإضاءة بالداخل. لبثنا برهة إلى أن اعتادت أعيننا الظلام، وكلانا نظره ضعيف أنا وسيد، غير أن سيد كان أكبر حظا؛ فقد انكفأ بسبب تعرقله في كرتونة ملقاة على الأرض، بعدها اكتشفنا أن الأرضية ملأى بالكراتين والأقفاص التي يعلوها التراب، فقال لنا: "هذه الكراتين مملوءة كنوزا.. افتحوها بحرص ففيها كل الكتب". بدأنا نفتح الكراتين واحدة تلو الأخرى بحرص شديد، خشية ما قد يكون ألم بها من هوام أو ثعابين كونها مغلقة لفترة طويلة. وكم كانت دهشتنا كبيرة قدر خيبتنا عندما أخرجنا الكتب فوجدناها كلها تخص الصفوف الابتدائية الأولى من قراءة وخط وحساب، وعُدنا بخفي حنين تملؤنا خيبة الأمل مغلفين بتراب السنين.



سعيد أبو السعد

فكل كف رآها ظنها قدحًا ⁂ وكل شيء رآه ظنه الساقي

في مطلع الثمانينيات، يوم زواج محمد وشاحي، كنت أنا وصديقي سعيد نقوم على كثير من تجهيزات العرس والإعداد للفرح، وكان صاحبنا معروفا بأنه (صاحب صاحبه)، لا يتأخر عن معروف، ولا يسوّف ويسبق فعله قوله، وحدث أن كنا في مشوار عاجل إلى نجع حمادي مساءً، وكان سائق السيارة يقيم في بيت قريب من جسر طراد النيل، فسرنا سويا أنا وسعيد من خلف بيت وشاحي إلى منزل السائق؛ ولما كان الطريق ترابيا ولم تكن شملته شركة الكهرباء بكرمها بعد، فلم تكن به أية أعمدة للإضاءة، ناب عنها ضوء القمر الفضي، وألقى بظلال النخيل على الطريق، فبدت من بعيد سوداء قاتمة مشابهة لقنوات الري التي كان المزارعون يقطعون بها الطريق ليرووا أراضيهم من المسرب الرئيس بجوار حديقة الدكتور. ولما كان سعيد رحمه الله يتمتع بقدر لا بأس به من العجلة، فكان أن سقط في أحد هذه المسارب إلى ركبتيه في الطين الطري اللزج بحذائه وجلبابه. أمسكت به وانتشلته من المسرب وأنا لا أتماسك من الضحك بعد انزلاقي معه وبعد أن تلطخت ثيابنا بالطين. لكن ما كاد يقتلني فعلا هو أنه لم يفرق بعدها بين ظلال النخيل والمسارب، فصار كلما رأي ظلا عاد إلى الخلف خطوتين، واستجمع قواه، وقفز كالغزال الرشيق على كل ظل من ظلال النخيل التي تعترضنا، وتردد الآفاق صدى ضحكاته المجلجلة.

القاهرة أيام عزها

في طفولتي الباكرة، كنت أنتظر الإجازة الصيفية بفارغ الصبر؛ وذلك لأننا كنا نزور القاهرة ونقيم عند أخي الأكبر طوال فترة الإجازة. عندما كنا نسافر من البلدة إلى القاهرة، كنا نعبر النيل في فلوكة إلى البر الشرقي للصعود إلى القطار، والذي كان في حد ذاته متعة لا توصف للأطفال، ومصدر تعاسة وشقاء للكبار؛ حيث الزحام لا يطاق على الرصيف، والقفف التي يحملونها وفيها الهدايا لأهل القاهرة من كل شيء زوجين، حيث كانت تحتوي قفف المسافرين على الخبز البلدي والجبن القديم والشريك، والعسل، وأحيانا القصب، كأن القوم في مجاعة! هذا بالإضافة إلى أعداد المودعين -ولا أبالغ؛ فمن الممكن أن يكون المسافر واحدا ومودِّعوه عشرا- وُجد أحد المسافرين على رصيف المحطة بعد أن غادرها القطار يضحك ضحكا هيستيريا شديدا، ويضرب بقدميه الأرض ويستلقي عليها ويرفس، ويثير جلبة شديدة، فاقترب منه أحدهم مستفسرا عن سبب ضحكه، فقال له: "كنت مسافرا على القطار المغادر ومعي سبعة أفراد يودعونني، كلهم ركب القطار إلا أنا تركوني على الرصيف!"

كانت متعتي في القطار أن أقف مواجها النافذة، أشاهد أشجار النخيل والصفصاف وأعمدة الهاتف المهرولة إلى الخلف -التي لم تعد موجودة الآن- وأتعجب من القمر الذي يرسل أشعته المرتعشة على زجاج النافذة المكسور، ويسير معنا، ويختفي أحيانا خلف المباني والأشجار كأنه يلاعبنا؛ وذاك الصوت الساحر للقطار عندما يمر فوق كوبري خشبي عتيق. وكانت بهجتي عظيمة عندما نقترب من القاهرة وأشاهد مصابيح النيون

التي تجعل القاهرة تسبح في النور، وأقارن بينها وبين قريتنا التي تغرق في الظلام -ينطبق على ذلك تمام الانطباق قول العقاد عندما وصف رفاعة الطهطاوي بأنه (قروي ساذج بهرته أضواء المدينة). وكنت أتحمل التأنيب الشديد وأحيانا الضرب لعدم جلوسي على المقعد حتى لا يطمع فيه راكب آخر. كان القطار وما زال يمشي سريعا حتى يغادر محطة الجيزة متجها إلى القاهرة، فيبدو كما لو أنه تمساح عملاق يزحف زحفا وهو في النزع الأخير، يسير برهة ثم يتوقف ساعة، حتى يصل إلى رصيف محطة مصر وقد بلغت القلوب الحناجر، ومن ثم يلفظ ركابه على الرصيف زرافات ووحدانا. كان النزول في محطة مصر متعة أخرى، حيث صياح الباعة ونهيق القطارات الداخلة والمغادرة، وباعة الصحف والمجلات، وباعة المشروبات والمأكولات الذين ينادون عليها بلحن موسيقي ممدود قلما تجده في أي محطة في العالم. وكان هناك مشروب غازي لا تجده يباع إلا في محطات القطارات كأنه مشروب حكومي، اسمه (سباتس)، علمت فيما بعد أن صاحب هذا المصنع يوناني وله قصة أخرى نرويها فيما بعد. وإذ تنزل من باب المحطة الأمامي إلى نهر الشارع، تفتح القاهرة إليك ذراعيها تتنشق هواءها الثقيل محملا بالبنزين غير المحروق من عوادم السيارات والأتوبيسات المائلة على الجنب، يخيل إليك أنها سوف تسقط على جوانبها من ثقل أحمالها، وأنين محركاتها كأنها وحش عملاق مصاب بشوكة في حلقه، أو كلب ضال يعوي في أحد شوارع القرية مضروبا بطوبة، وترى التمثال العملاق لرمسيس الثاني والنافورة الممتدة أمامه، وانطلاق المياه من تحت قدميه كأنما يستهزئ برعيته بعد مماته كما كان يسومهم في حياته. كان هذا

قبل إنشاء الكباري الملتوية كالديدان في سماء القاهرة. كان أخي الأكبر يصحبني لمشاهدة التليفزيون الذي كان موضوعا للعامة في حديقة القبة أمام القصر الجمهوري، وكان التليفزيون كبير الحجم لم أكن أتبين فيه شيئا سوى أطياف أشباح تروح وتجيئ، وأصوات مبهمة لا تكاد تبين كأنها هي أصوات الجن والشياطين؛ لذلك كان يجتاحني السرور كلما ذهبنا إلى بيت صديقه سيد فراج نزوره، والذي كان يقتني تليفزيونا خاصا أفضل من تليفزيون العامة، وكان طبعا أبيض وأسود -وأحيانا أسود وأسود- وهو في هذه الفترة من العجائب، فكنت أتسمر أمامه لأشاهد كل ما يعرض حتى نشرات الأخبار وعروض الأزياء، والتي قد لا تثير اهتمام الأطفال في تلك الفترة.



الحسن بن هانئ

من الشعراء المميزين عندي أبو نُوُاس (ينطقها العامة أبو نَوّاس بتشديد الواو)؛ لأنه جدد في الشعر العربي بطريقة ماكرة، وطرق معان لم يطرقها أحد قبله، وكتب في الممنوع. وهو يفاجئك في كل قصيدة بصور وأخيلة وموضوعات جديدة، وخفة ظل لم تتح لغيره من الشعراء. لولا تمسكي نوعا ما بأهداب الدين لتأثرت بخمرياته التي وضع فيها من المعاني مالم يقدر عليه سابقيه كلهم.

يسخر من امرؤ القيس في معلقته الشهيرة التي مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ⁂ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

بقوله:

أقول لمن يبكي على رسم درس ⁂ واقفا ما ضرّ لو كان جلس

وكثيرا ما تمادى الشعراء في وصف الليل، ومعاناتهم من طوله من العصر الجاهلي كقول امرؤ القيس:

فيالك من ليل كأن نجومه ⁂ بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقال النابغة:

وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همهِ ⁂ تضاعَفَ فيه الحزْنُ من كلّ جانبِ

تطاولَ حتى قلتُ ليسَ بمنقضٍ ⁂ وليسَ الذي يرعى النجومَ بآيبِ

وزاد فيها الحصري القيرواني زيادة لم يترك بعدها لمستزيد قائلا:

ياليل الصب متى غده ⁂ أقيام الساعة موعده

حتى ألقى أبو نواس عصاه قائلا:

لست أدري أطال ليلي أم لا ⁂ كيف يدري بذاك من يتقلّى
إن تفرغت لاستطالة ليلي ⁂ ولرعي النجوم كنت مخلا

طار إليه الشاعر والصحافي الكبير كامل الشناوي -وكلاهما ظريف- ممتطيا خياله، عائدا إلى العصور الغابرة، ليحصل منه على حديث صحفي على حد قوله، فالتقاه في إحدى الحانات، فعرفه بنفسه قائلا: أنا كامل الشناوي.

رد أبو نواس: "وما هي مهنتك؟" قال: "صحافي"، فنظر إليه أبو نواس شذرا؛ لأن الصحافة والتصحيف أيامه كانت صفة ذميمة.

وسأله: "ماذا تريد؟" قال: "أريد منك حديثا"

رد مستغربا: "ولكن الحديث لا يقوله إلا نبي!"

قال الشناوي: "ذاك هو الحديث الشريف"

فعاجله أبو نواس: "أو تريد مني حديثا غير شريف!؟"

هذا ما دار بينهما والعهدة على الراوي كامل الشناوي.

جمال عبد اللّه

هو رجل أريتري يحمل الجنسية اليمنية، يتحدث أكثر من لغة ويجيدها إجادة تامة. كان رئيسا لي في العمل يوم أن عملت موظفا في شركة سيارات في بداية التسعينيات في جدة لمدة سنة، وكان يقضي على مرتبه قضاءَ مبرما بعد ثلاثة أيام من استلامه فقط، ويعيش باقي الشهر على الاستدانة. كان متزوجا ولديه ثلاث بنات حينها. استدان من كل من يعرفهم في مجال العمل أو الجيرة. ذلق اللسان لا تعوزه حجة ولا يتلعثم في الرد أبدا، وإنك لتجد على لسانه من الأكاذيب ما لا تجده على ألسنة الساسة والمشعبذين. كثيرا ما تهدَّده الدائنون عندما يتحاشى مقابلتهم، فإذا حدث ونصب أحدهم له فخا ليلاقيه، فإنه لا يهاب اللقاء، بل ويخرج من اللقاء الثاني، الذي توعده فيه دائنه بالويل والثبور وعظائم الأمور، بقرض آخر من نفس الشخص! كيف؟ لا أدري لأنه فعلها معي شخصيا. أوتي قدرة غريبة على الإقناع، المؤسف أنه لم يستفد منها إلا في الاستدانة، ولو استفاد بها في العمل لأصبح له شأن آخر.

نائب المدير العام

كان محمد عز الحق نائبا للمدير العام في وكالة إعلانية مرموقة في جدة التحقت بها مديرا لإدارة جديدة فيها، ولما كانت شهرته سبقته إليّ، فقد اشترطتُ أن تكون الإدارة الخاصة بي مستقلة ماليا وإداريا -نعمل تحت الاسم فقط- وكان ما أردت، لكننا بحكم العمل تحت مسمى واحد فقد تقاطعت المصالح، وكنت حريصا على بقائها في أضيق الحدود.

كان هذا الرجل يتعجل الأرباح والمكاسب، استغل معرفة المدير العام لأحد المساهمين في بنك النيل، وهو رجل يتربع على رأس مال لا بأس به لكنه لا يجيد إدارة المشروعات، فعرض عليه صاحبنا مشروعا وهميا رأس ماله مليون ريال فقط، على أن يسترد رأس المال وعليه أربعون في المائة ربحا صافيا، فقبل الرجل وأعطاه المبلغ، وبعد فترة وجيزة لا تزيد عن ربع سنة رد له المبلغ وفوقه النسبة كما اتفقا.

بعدها بأسبوع قدم إليه مشروعا وهميا آخر بأربعة ملايين ريال، فدفعها إليه الرجل دون سؤال.

وطالت فترة الاسترداد بالطبع عما اتفقا عليه، وكان صاحبنا لسوء حظه قد أخذ مبلغا مشابها من أحد رجال المال المشهورين، والذين لديهم سطوة النفوذ بالإضافة إلى المال، فلم يلبث إلا قليلا حتى كان في قاع السجن متكئه.

الحكمة هنا أن هذا الرجل كان بإمكانه كسب هذا المبلغ أو أقل قليلا لو أنه دخل في مشروعات حقيقية، وكان بإمكانه ذلك.

علاء مبروك

هو شاب ظريف، حاضر النكتة بهي الطلعة لاذع النقد. لما كان طالبا في جامعة الأزهر في أسيوط، كان أكثر ما يمقته هو المذاكرة، خصوصا اللغة العربية والنحو. جاءه سؤال في النحو يقول: أعرب بغتة.

فكتب: الباء حرف جر، وغتة اسم مجرور.

ذات يوم زاره في مسكنه في أسيوط مجموعة من أهل البلد، بعد أن قضوا واجب الزيارة لأحد مرضاهم في مشفى بها، وحانت صلاة الظهر وهم عنده، فقالوا له نصليها جماعة في غرفتك، وأقيمت الصلاة وقدموه لإمامتهم حيث أنه شيخ في الأزهر. وتقدم صاحبنا مرغما ومحرجا؛ حيث أنه لم يُصَلِّ إماما قط. ثم بدأ يصلي بهم الظهر جهرا، وطبعا لم يدعوه يكمل. والباقي معلوم.

إبراهيم ناجي الشاعر

كان الشاعر الرقيق إبراهيم ناجي مشهورا بقلة مرضاه، وكان يعلق صورة كبيرة في عيادته مجهولة بالنسبة لأصدقائه الأدباء والشعراء، وذات يوم دخل عليهم مجلسهم الشاعر الكبير كامل الشناوي وهو يلهث قائلا لهم: "لقد اكتشفت السر وعرفت من هو صاحب الصورة. إنه المريض الوحيد الذي دخل عيادة الدكتور وشفي"!

الأمراض الجلدية

حبيبنا الدكتور ممدوح وشاحي افتتح عيادة للأمراض الجلدية، كان جل زواره من المعارف والأصدقاء والأقارب، وهم بالطبع لا يدفعون، وأيضا لا يشفون.

جميل جمال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ⁂ متى أضع العمامة تعرفوني

هو رجل متميز فنيا وأكاديميا، وسيم الطلعة كريم الأصل قوي الشخصية، مولع بحضور المؤتمرات العلمية، ومتابع لكل جديد في مهنته؛ وبالرغم من ذلك لم ينجح في أي مشروع خاص به في تخصصه. يتهمه بعض الناس ظلما أنه غير محظوظ، لكنني كما أعتقد اعتقادا جازما بكفاءته الفنية، أعتقد بانحسار كفاءته الإدارية، وهو لا يعترف بذلك مطلقا، ويضعه اعتداده الشديد بنفسه محل انتقاد من عارفيه، بل وأحيانا احترازا منه. لو ألقت بك المقادير في طريقه وتحدثت معه مرة في موضوع ما -حتى ولو كان خارجا عن تخصصه- فسوف تتكرر على مسامعك الكلمات من نوع "أنت لا تعرف"، "اسمعني ليس كذلك"، "أنا أفهمك"، "دعني أشرح لك". تشعر حينها كأنك لم تؤت من العقل شروي نقير، وأن وجودك في هذه الدنيا زيادة، وأنه يدفعك إلى الانتحار دفعا لأنك لا تجد لك على ظهر البسيطة فائدة طالما هو يلقي عليها من أشعة ذكائه وفطنته مالا زيادة بعده لمستزيد. وهو يظن نفسه كما يقول المثل العربي (عذيقها المرجب وجديلها المحكك). لو لم تشرق سحنته البهية على الدنيا لكانت ديجورا. يرشح نفسه في كل مهمة ويرسب في كل انتخابات، وينتهز كل فرصة للظهور ليذكر بنفسه حتى لو كانت مناسبة أليمة، يذكرك بالدكتور محجوب ثابت.

كان الدكتور محجوب ضيفا على سعد زغلول في قريته مسجد وصيف هو والشاعر حافظ إبراهيم وآخرين، وكان الدكتور محجوب يود أن يتولى

وزارة شئون السودان أو أي وزارة على أقل تقدير، وكان موضع سخرية الشعراء، شوقي وحافظ وغيرهما. صحا الدكتور في الصباح الباكر وذهب إلى سعد باشا قائلا: "يا دولة الرئيس.. رأيت رؤيا وأطلب تفسيرها"، فال له سعد: "أنا لا علم لي بتفسير الأحلام لكن انتظر حافظا"، ولما جاء حافظ قال الدكتور: "رأيت فيما يرى النائم أنني امتطي ظهر ثور عنيد ماسكا بقرونه، وهو يجري بي في حقول من البقول، وخلفي عدد كبير من الحمير يجرون خلفي، فما تأويل رؤياي يا حافظ بك؟"

فقال حافظ على الفور: "الثور يا دكتور هو الحكومة، وطالما أنت آخذ بقرونه فسوف تتولى رئاستها". ثم صمت.

فقال الدكتور: "طيب والحمير اللي ورايا؟"

فقال حافظ: "ما هما دول اللي انتخبوك يا دكتور".

الدكتور عبد الحليم بدوي
(سباتس)

عندما كنا نقوم بتنفيذ برامج ترويجية لبعض المنتجات المتعلقة بالصحة، كنا نستعين بمندوبين في نفس المجال، صيادلة وبياطرة وبشريين، من باب أهل مكة أدرى بشعابها. كان الدكتور محمود طبيب ولادة يعمل كممارس عام في أحد المستوصفات، وهو يمارس كل المهن عدا الطب، وهو لهذا السبب يختار نوبة المساء في المستوصف لينام. كان يعمل معنا في القيام بزيارات للمستشفيات لتنفيذ تلك الحملات، وهو عندما يأتي صباحا ليقدم تقاريره عادة يكون محملا بأكداس من الأوراق، حيث يقوم باستيراد كل شيء لصالح عملائه، بدءا من السمك المجفف من الفلبين، مرورا بدبابيس الشعر من الصين. وهو يستغل المكتب لإرسال الفاكسات واستقبالها منه مجانا بالطبع، وكنا نتغاضى عن ذلك إكراما لتفانيه في عملنا وخفة ظله.

كلما زار القاهرة أتي محملا بعشرات المشروعات التي يود تنفيذها لدى استقراره بمصر.

عصر أحد الأيام زارني في المكتب عقب عودته من إجازته في القاهرة يحمل فكرة مشروع ممتاز.

سألني سؤالا مباغتا: "أتذكر مشروبًا غازيًا اسمه (سباتس)؟ قلت له: "نعم.. هذا الذي لا يوجد إلا في محطات السكة الحديد كأنه مشروب حكومي" قال: "نعم.. أحكي لك قصته"

استدار بمقعده ليواجهني، وبدت على ملامحه الحادة أمارات الجد والاهتمام، وبدأ يحكي. قال: "هو مصنع متواضع في القاهرة، صاحبه رجل يوناني توفي قبل فترة، وتديره حاليا أرملته بطاقة إنتاجية محدودة تكفي لإعاشتها فقط". ثم أكمل: "فعرضت عليها المشاركة وإعادة المصنع إلى سابق عهده فوافقت. وأنا أريد مشاركتك في هذا المشروع". وعندما سألته "كيف توفّق بين الطب وإدارة مصنع مشروبات غازية!؟"، قال: "(ما هو كله شغل)". طلبت مهلة لدراسته، ومازلت.

عموما الدكتور محمود يدير حاليا إحدى المستشفيات الحكومية الكبرى في الدلتا، ولا أظن أنه كف عن التفكير في المشروعات.

***

كلها معلقات

كان شاعر النيل حافظ إبراهيم والشاعر إمام العبد وآخرين يسهرون ذات مساء أمام محل الجزارة الخاص بالشاعر حسين حلمي الجزار، وكانوا يتقارضون الشعر ويتحدثون عن الشعر الجاهلي، ويناقشون بعضا من قصائده. واحتدم النقاش بينهم، فقال الشاعر حسين حلمي موجها كلامه لحافظ: "لكن يا أستاذ أنا رأيي...."، فلم يدعه حافظ يكمل كلامه ونهره قائلا: "انت جزار إيش فهمك في الشعر!؟"، فقال حسين على البديهة: "موش كلها معلقات يا أستاذ؟"

من عيون الشعر..

قالت ألا تصحو فقلت لها ⁂ أخبرتني أن الهوى ثمِلُ

الدكتور مختار حمام

إذا غضبَ جانَبَ العقل، وهو غاضب غالبا. يعمل في أحد المستوصفات في قرية نائية، ويزور المدينة المجاورة مرة كل شهر أو شهرين، ويضل طريقه في كل مرة. أراد يوما ما أن يتسوق في المدينة، فذهب إلى أحد المحلات المشهورة، عنوانه جلي واضح وطريقه مستقيم لا ترى فيه عوجا ولا أمتا، ومع ذلك ففي طريق العودة دائما يسلك الاتجاه العكسي، وتثور حمم غضبه وهو يصر إصرارا غريبا أنه سلك نفس الطريق ومع ذلك ضل السبيل، وهو كلما ازداد غضبه ابتعد عن جادة الطريق أكثر فأكثر. علمت فيما بعد أن هذا ديدنه كلما ذهب للتسوق.

اتصل بنا يستنجد، ووصف لنا وصفا كاريكاتوريا عن موقعه. المهم وصلنا إلى مكانه بعد أن غادره، ليصف لنا موقعا آخر؛ وهكذا قضينا الليل بطوله وعرضه نطارده لإعادته إلى البيت كما لو كنا نطارد عصفورا فر من قفصه.

ما قاد سيارة إلا وترك عليها أثرا من كراماته، مرة فانوس مكسور، وأخرى باب مخدوش. الغريب في الأمر أن الإصابات في السيارات تكون معظمها من الأمام أو من جانب السائق.

ذات انتخابات برلمانية، احتدم النقاش بينه وبين أحد مجالسيه، ثم صمت طويلا وانبرى قائلا: "أنا لا يعجبني واحد من المرشحين لأن اسمه مقزز جدا.. هذا المرشح اسمه (أبو النجايس)"، وانفجر الحاضرون في الضحك؛ فقد كان اسم المرشح (أبو النجا ياسين)!

صابر الخضيري

طيب القلب نقي السريرة، خفيف الظل، مرح. كنا ونحن صغارا نتحلّق حوله نسمع منه الحكايات المسلية وهو يقص الباطل وينسج البهتان. بارع في السرد، يتقن توظيف لغة الجسد، خياله أوسع من بال الخياط، يغلّف قصصه الخيالية المغرقة في الكذب بسيماء الجد، ويحكي النكتة البارعة ولا يبدو له سنا، لطيف ظريف. ذات حكاية سألنا: "أتدرون من أين تأتي العملات الورقية؟" عرفنا أنه سوف يقص إحدى خزعبلاته فقلنا: "لا".

قال: "إنما نحن نزرع النقود الفضية، فتكبر وتطرح أوراقا نقدية، أول ما تظهر تكون من فئة الشلنج، ثم تنمو وتنمو لتصير حتى خمسة جنيهات، وإذا تركت فترة أطول قد تصل إلى العشرة جنيهات -لم تكن الفئات الأعلى معروفة له ولا لنا.

ذات يوم تحدث القوم عن الأنواع الجيدة من اللحوم. بعضهم يفضل الضأن، وبعضهم البقري، فقال هو: "أنا عندي الماعز من أفضل اللحوم؛ لأنه يستوي بسرعة. أتصدقون أنني اشتريت كيلو لحمة ماعز من الجزار في السوق، شربت سليقتها عند الجامع". المسافة بين السوق والجامع خمسون مترا (سليقتها يعني شُربتها -لأهل المدن).



ناجح أفندي

كان رحمه الله -توفي في النصف الثاني من الثمانينيات- من أعيان البلد، سليل عائلة عريقة، ذا شخصية قوية، متعدد العلاقات والمعارف أكثرها مع ذوي السلطة والنفوذ. كان فيه كثير من صفات القيادة. يقول شانئوه أنه مرتش وأنه لا يقدم خدماته مجانا، بل لوجه المال، وبالرغم من ذلك كان أشد منتقديه يقصدونه لجلب منفعة أو دفع مضرة. مآدبه لذوي الشأن دائما عامرة، وأياديه لذوي الحاجة ممدودة. ومما أعطى الشائعات قوة -أنه يقوم بدور الرائش- أن وزارة الداخلية كانت تنهج نهجا غريبا في الصعيد لجمع السلاح؛ بما أنهم لا يريدون الدخول في مجابهات مباشرة مع حائزي السلاح، فقد كانوا يفرضون على كل القرى تقديم كمية من البنادق والأسلحة لوزارة الداخلية كل فترة، يفرضونها على العمد والشيوخ وذوي الشأن في تلك القرى، بدلا من ترويع الآمنين -المفروض بهم حمايتهم وبسط الأمن- للتفتيش على الأسلحة، والقبض على حائزيها، والظهور في مانشيتات الصحف بعناوين عريضة صارخة، مثلا: [ضبط كميات كبيرة من الأسلحة في حملة لوزارة الداخلية على الخارجين على القانون]. وكان الشيوخ والعمد يقومون بجمع الأموال من القرى لشراء الأسلحة من تجارها -كان بعض هؤلاء التجار نوابا في البرلمان- التي يقدمونها كقرابين للداخلية لكف أذاها عن الناس كما يقولون، وكان معظم الشيوخ والعمد يحصلون لأنفسهم على نصيب من تلك القرابين. كانت قريتنا من القرى الوادعة أقل تلك القرى حيازة للأسلحة، ومع ذلك كانت تفرض عليها نفس النسبة. كان البسطاء يسمونها (الفِردة) بكسر الفاء.

بالطبع وبقدرة قادر كانت الأسلحة تعود إلى بائعيها مرة أخرى بعد انفراط عقد المولد.

ذات يوم كنت جالسا في الجمعية الزراعية بعد الظهر، وكان من بين الحضور أخواه منصور وفهمي. دخل علينا وذكر أنه قادم من المركز، وأن هناك (فِردة) سلاح بمبلغ ثلاثمائة جنيه. وحيث أن المبلغ بسيط، فهو يقترح على أخويه، وهما من أعيان البلد، أن يتحملوها نيابة عن البلد بالتساوي؛ حيث أن المبلغ أتفه من أن تُعقد له المجالس ويقسّم على الناس. انبرى أحدهما قائلا: "يا أخي انت فلوسك كتيرة.. ادفعه لوحدك!"، ولم تبد على الآخر أي أمارة لا بالقبول ولا الرفض.

تطورت المناقشة وتركتها محتدمة.

الشاهد في الأمر أنني لم أسمع بعدها في البلدة أنه تم جمع هذا المبلغ من الناس قط.

قاسم أبو علّيق

مؤذن المسجد الكبير، ذو صوت عميق أقرب الأصوات إليه صوت الشيخ علي محمود. لم ينل حظا من التعليم، وحفظ بعضا من القرآن كعادة أهل الريف. لو أتيح له الظهور وصقل تلك الموهبة، لبزّ كثيرا من القراء والمؤذنين المشهورين. وإذا سمعت صوته في الأذان، يخيل إليك أن الأرض تميد وأن السماء تتجاوب مع آهاته العميقة الممتدة ونفسه الطويل وصوته المليء الفخم، لم تعبه صحلة ولا بحة، صاف كالماء في كأس البلور خصوصا إذا أذن للفجر، حيث سكتت الأصوات فلا تسمع إلا صوته يتصاعد رويدا رويدا، يتسرب صوته حتى يبلغ من النفس أقصى أعماقها فكأنه يروي أرضا عطشى.

كان يرتزق من صيد الثعابين والحيات من البيوت، ويرتل الترانيم الصوفية الغريبة أثناء القبض على الحيات، يخيل إلى سامعه أنه يرطن بالهندي أو بالرومي، وكأنه ينوم الثعابين مغناطيسيا، فتخرج إليه ليلتقطها بيديه ويضعها في كيس ثم يمضي إلى طيته.

كان مع ذلك خفيف الروح طيب المعشر. ذات فجر صلى بالناس لغياب الإمام، وكان العم أمين يكره أن يكون الإمام حاسر الرأس، وينتقد بشدة من يفعل ذلك، وقد لا يصلي خلفه أو تحدث بينه وبين الإمام مشادة تنتهي بأن يفرض العم أمين رأيه دائما. وكان في ذلك اليوم يرتدي قاسم غطاء رأس بني لا يبدو جيدا لمن ضعف بصره كالعم أمين، وتقدم قاسم للصلاة وكبّر تكبيرة الإحرام ودخل في الصلاة، وخلفه العم أمين يقول له: "تعمّم"، والإمام لا يوليه اهتماما بل أكمل القراءة، فكررها أمين:

"تعمم!" هذه المرة بصوت عال النبرة يمتلئ حنقا وغضبا، وفي المرة الثالثة، قطع الإمام صلاته واستدار خالعا الطاقية ملقيا بها على الأرض، ومتوجها إلى العم أمين قائلا: "أومال دي إيه يا بن الـ..........."

وطبعا استلقى المصلون على أقفيتهم ضحكا ولم يستطيعوا إكمال الصلاة.

ذات يوم داعبه بدال التموين مداعبة خشنة، فأسرها في نفسه، وبعد فترة وضع ثعبانا مخلوع الأنياب في منديل، وتوجه إلى البدال شاكيا أنه اشترى كيلو سكر من دكان آخر ويشك في وزنه، وأعطاه للبدال ليتحرى له الوزن الصحيح، فأخذه صاحبنا بحسن نية ووضعه على كفة الميزان. ولما كانت ربطة المنديل مرتخية، فقد تسرب الثعبان كالماء من فتحة المنديل إلى يد الرجل مباشرة، فما كان من هذا إلا أن قفز يعدو كالغزال خارجا من الدكان وهو يتوعد قاسما بالويل والثبور وعظائم الأمور. رحمهم الله جميعا وأجزل لهم المثوبة.

ميلم أو مليم

اسمه محمد ولقبه ميلم، كان يحفظ القرآن كاملا، لكن لا يجاريه أحد في المزح، ولا يعترف بالخطوط الحمراء. ذات يوم كان يصلي في المسجد، وأثناء الركوع أخرج من جيبه قطعة من الحلوى الجافة وتناولها أثناء الركوع، فأصدرت صوتا منكرا، فلكزه من إلى جواره ليصمت، فرد عليه قائلا: "والله ما معايا غيرها"!

صبري شمروخ

سمين بدين لطيف، مرح القسمات، ماكر اللفتات، إذا غضب لشيء ما حوّل همه إلى الطعام، فكان ما يزدرده ساعة غضبه أضعاف ما يأكل ساعة رضاه. قل ما شئت من أوصاف، لكنه كلما ازداد سمنة ازداد رشاقة وخفة ظل. ساكنته في الاغتراب مدة وجيزة، كان نعم الرفيق والجليس؛ كريم النفس، لا تخلو جلسته من طرفة أو نكتة حاضرة، أو معلومة طريفة، أو كوب من الشاي البغدادي، فأنت في كل الأحوال مستفيد.

ذات يوم كان أحد بلدياتنا من قرية مجاورة لنا يشرب ويتعاطى كل ما يخطر على باله، ولما كان يضيق به الحال عن شراء المسكرات الفاخرة كان يشرب نوعا معينا من أدوية السعال بها قدر من المخدر، وذلك أحال لسانه أسود اللون حالكا. جاء يوما يشكو لصبري ما ألمّ بلسانه وأنه يؤلمه، فرد عليه صبري بديهة: "أصل انت يا عز راجل طيب اللي ف قلبك على لسانك".

كان لنا صديق مشترك اسمه بارع من ذوي قرابته، كان دائما محل سخريته وتهكمه، بالرغم من أن بارع هذا كان كريم الخصال غير أنه كانت له مواقف غريبة؛ إذ كان قوميا عروبيا ويشعر بولاء شديد لكل من ينتمي إلى محافظته ثم بلده، ويهتم لكل مظلوم.

ذات يوم دخل علينا من الباب الأمامي وهو يترنح كالثمل ممزق الملابس مشوه الوجه. بعد أن التقط أنفاسه وجمع شتات نفسه عرفنا منه تفاصيل القصة، وهي أنه كان يركب الحافلة البغدادية، وهي مثل حافلات لندن بطابقين، وكان يركب إلى جواره أحد الأخوة السودانيين،

تحرش بالسوداني بعضا من شباب بغداد وأوسعوه سخرية وهمزا ولمزا، فقام صاحبنا يدافع عن السوداني بالقلب واليد واللسان، فتركوا السوداني الذي ولّى من الحافلة هاربا، وأمسكوا ببارع وتركوا آثارهم على وجهه وعينيه. لبث بعدها حبيس البيت أسبوعا حتى تختفي آثار العدوان القومي، والهالات الزرق التي أحاطت بعينيه ووجنتيه.

الجانب الآخر

لم أجد -فيما قرأت- ممن اهتم بالبحث والكتابة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة، ولا حتى التابعين، من اهتم برصد الحياة اليومية لهم بشكل موسع وشامل، للاستفادة من كيفية تناولهم لمشكلات الحياة العامة، بعيدا عن الأمور الفقهية والعبادات التي قتلها الفقهاء بحثا وعلما، والتي اهتم بها جمهور الفقهاء والباحثين -وهذا مطلوب فلولاه لما وضحت مسائل الفقه للناس- لكن ما أقصده أن حياة القوم أشمل من ذلك وأعم. تجد قليلا من ذلك منثورا في كتب الفقه، لكن الأكثر من ذلك في كتب الأدب، والتي قلّما اهتم بها الفقهاء لعدم اطمئنانهم لرواتها -ولديهم بعض الحق.

في قول لأحد الفقهاء، إن الحديث الضعيف يؤخذ به في مجال الأخلاق، فما بالكم بالآثار الكثيرة المبثوثة في كتب الأدب عن حياة القوم، وما لاقوه من مصاعب وكيف تداركوها، وحكمهم البالغة في تجنبها والتعامل معها؛ بل إن كتب الأدب تحوي كثيرا من بلاغتهم وأجوبتهم القاطعة في أمور الحياة العامة. لو جُمعت هذه الآثار وأُحسن تحقيقها وتصنيفها، لكان لدينا كنز لا ينضب في كل مناحي الحياة من كافة العلوم الإنسانية الحديثة، أمثال التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية.

قام بشيء من ذلك العلّامة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، عندما قرأ كتاب (دع القلق وابدأ الحياة)، فكتب كتاب (جدد حياتك)، وردّ كثيرا من الأمور التي ذكرها ديل كارنيجي إلى أصولها الإسلامية، لكنها ظلت

محاولة يتيمة -على حد علمي- وما زال هذا البحر لا ساحل له حتى الساعة.

يقول علي بن أبي طالب: "قيمة الإنسان بقدر ما يحسن".

وهذه كلمة يقل لها أن تكتب بماء الذهب.

ذُكر أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن واليه على مصر يكلف الناس ما لا يطيقون، فأرسل إليه: "لقد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت".

قيل لإياس بن معاوية المزني القاضي، وكان مضرب المثل في الذكاء: "إنك تقضي بالحق غير أنك تعجِّل". فقال للرجل: "كم لكفك من إصبع؟" قال: "خمسا"، قال: "لقد عجلت" قال: "ما عجل من قتل الأمر بحثا وعلما"، قال: "هذا ردي إليك".

***

لما حضرت الوفاة سعيد ابن العاص قال: "يا بُنيَ، أيكم يكفل عني ديني؟"
قال عمرو بن سعيد: "عليّ دينك يا أبه. كم هو؟" قال: "ثمانون ألف دينار".

قال: "وفيم استدنتها؟" قال: "في كريم سددت خلله، أو لئيم اشتريت عرضي منه"

ثم قال سعيد: "هذه خصلة وبقيت خصلتان" قال: "ما هما يا أبه؟" قال: "يا بني.. لا تزوجن بناتي إلا من الأكفاء، ولو بفلق خبز الشعير". قال:

"أفعل".

قال: "يا بني، ذهبت خصلتان وبقيت خصلة". قال: "وما هي يا أبه؟" قال: "يا بني، إن فقد إخواني وجهي فلا يفقدون معروفي"

قال: "أفعل يا أبه". قال: "يا بني، مازلت أعرف الكرم في حماليق عينيك وأنت يُحرك بك في مهدك حتى بلغت ما أرى"

"يا بني، ما شاتمت رجلًا مذ كنت رجلًا، ولا زاحمت ركبتاي ركبته، ولا كلفت من يرتجيني أن يسألني فيبذل وجهه ويرشح جبينه رشح السقاء، إذن، والله، فما وصلته"

"يا بني، أخزى الله المعروف. إذا لم يكن ابتداءَ عن غير مسألة. فأما إذا أتاك تكاد ترى دمه في وجهه مخاطراَ، لا يدري أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجت له من جميع ما تملكه ما كافأته، ولا الذي بات يتململ على فراشه يعقب بين شفتيه أيجدني موضعًا لحاجته أم لا، لهو أعظم علي منةً مني عليه، إذا قضيتها له".

***

ممدوح وشاحي

سعة الصدر، التعالي عن الصغائر، تناسي الإساءة، صلة الأرحام، كبر النفس وليس تكبرها، كما قال المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارا ⁂ تعبت في مرادها الأجسام

ميزات وجدتها عيانا في أخينا الدكتور ممدوح وشاحي.

أما عن عيوبه، فلا يتسع لها المقام ههنا.

****

كلمات غير مأثورة

- وزير الخارجية الإسرائيلي أفيجدور ليبرمان أحد الوجوه الصادقة في إسرائيل؛ لا يخفي عنصريته أبدا، ويجهر بآرائه مباشرة بدلا من الوجوه المغلفة بالسوليفان الدبلوماسي. هذا ليرتاح قليلا أولئك المذبذبون الذين يتوهمون أن إسرائيل قد تسعى إلى السلام.

- شارون، بغض النظر عن دمويته، قيادي داهية يثير الإعجاب، تمنيت لو أن في العرب من يضاهي شارون من جانبنا.

- عندما أطري صديقي، فهذا إطراء لي لحسن اختياري.

****

الشـيخ الصـوفي السـلفـي

نشأ في بيت متدين بطبعه، سليم النفس، كريم العنصرين، ذي همة عالية وقلب طموح ولسان ذرب وبديهة حاضرة، لا يعوزه الشاهد من اللغة أو الشعر أو أقوال الفقهاء، بيد أن المجتمع كان مجتمعا صوفيا خالصا، فنشأ صاحبنا متمسكا ومتحمسا لنشر الصوفية وخزعبلاتها حتى النخاع، لا تخلو أمسياته من حضرة يجمع لها أصدقاءه ومريديه؛ إذ يبلغ به الوجد مداه، فيدق الأرض بأقدامه،فكأنما يفرغ فيها جهده، ويرفع يديه إلى السماء فكأنما يبثها وجده، تراه ممسكا بـ(البازة) مصفقا بها يمنة ويسرة، ومهرولا أمام موكب الشيخ وافي كلما أتى الشيخ من الشرق ليحيي الحضرة.

قصير القامة، مشدود البنيان، إذا وقف كأنه وتد في الأرض، يروي قصصا وخرافات عن الصوفية كأنما هي وحي منزّل، لا يخرم حرفا ولا يسهو عن خرافة من خرافات كراماتهم المبثوثة في قصصهم وخزعبلاتهم. أوتي قدرة رائعة على الخطابة وسرعة البديهة ومواجهة الناس، لدرجة أنه في الصف الثالث الإعدادي خطب أمام المدرسة ارتجالا.

كان مسرورا بالحركة التي قام بها السادات واعتقل فيها من تبقى من رموز ثورة يوليو، والتي أسماها ثورة التصحيح، حتى أن صاحبنا تحمس لها وكتب فيها زجلا يقول فيه:

ألفـين سـلام لقــائد ** ثـــورة التــصحيح

ياللي شطبت الغلط ** وكتبت كل صحيح

أتى الشيخ محمد أبو زيد إلى البلد في السبعينيات، فكأنما أتى الربيع إلى الدنيا بموكبه ليزيل آثار الخريف وأوراقه الجافة. قلب الطاولة على زيف المتصوفين وخرافاتهم، فكان صاحبنا مثار دهشة عارفيه؛ إذ أصبح فجأة من أشد المؤيدين للشيخ، بل وأخذ جانبه في كل معترك، وانقلب تماما على المتصوفة، وامتدت شبكة علاقاته ومعارفه إلى كل من يدعو إلى -الدين الجديد- نفي مظاهر الشرك عن العبادات. وكانت صحوة عامة في بر مصر كله تحت رعاية الدولة وعنايتها ودعمها وبصرها أيضا؛ للقضاء على الشيوعيين والناصريين الذين كانت ترى فيهم الدولة شرا مستطيرا. غير أنه كان ينأى بنفسه عن التورط في أي من الحوادث الساذجة، والتي تورط فيها بعض من الشباب الذين أخذتهم الحماسة ليقوموا بمحاولة تخريب لأحد الأضرحة الخاوية المهجورة، والقائم وسط الزراعات، ولما قبض على مجموعة منهم قبل اغتيال السادات -كان صاحبنا من بينهم- قال بعض بقايا المتصوفة جادّا: "إن صاحب الضريح انتقم منهم (وبيّن فيهم)".

بعد انقضاء فترة العسل بين الدولة وشباب الصحوة، واستنفاد الدولة لمصلحتها منهم، انقلبت عليهم، فتفرقوا شذر مذر؛ منهم من غيبته السجون في قيعانها الحالكة، ومنهم من اكتفى بالبحث عن لقمة العيش، ومنهم من سافر إلى الدول الخليجية. وكان صاحبنا ممن سافر إلى إحدى دول الخليج سعيا وراء الرزق، ولما كان صاحبنا مفوها لا يشق له غبار، ولا تخيب له حجة، ونظر في كتب المتقدمين والآخرين وجمع حصيلة من العلوم الفقهية لا بأس بها، فقد كانت تلك مسوغات كافية لكي يضمن لنفسه مورد رزق لا ينضب في تلك الدولة.

بعد أن القى عصى التسيار، واستقر به النوى لدى عودته، كان لابد له من السعي إلى مكانة اجتماعية ترضي طموحه، ولن تتوفر له إلا من خلال الدين، لكن كان أمن الدولة لا يسمح لمن هم على شاكلته باعتلاء المنبر

-ولو كانت تجمعه بهم علاقة خاصة- لكن جرت الرياح بما تشتهي السفن، فقد هبت رياح التغيير عاصفة مزمجرة كالسيل الهادر في ٢٥ يناير ٢٠١١، حطمت بعضا من رؤوس النظام القائم وألقت بهم في قيعان السجون، واعتلى صاحبنا المنبر، ووجد في السلفيين ضالته، بعد أن نبذه الآخرون وأصبح ممثلا لأفكار السلفيين، وقطبا من أقطاب الحزب، يدعو بدعواه، وينكر من اختلف مع رؤاه حتى لو كان أخاه.

كان من شأنه أنه بنى مسجدا في البلدة، وضحى فيه بالغالي والنفيس، ووقّف وقته وجهده على إنشائه، فلم يسلم من بغض الشانئين وافتراءاتهم، والذين هم دونه علما وعملا وأثارت حفائظهم تلك الشعبية التي حصدها في فترة قصيرة وكانت مثار استغرابهم؛ حيث أن معظم من أعطوه أصواتهم عندما ترشح للبرلمان كان دافعهم الحماسة والود المحض، وكانت محاولات تهميشه وإخماد جذوة نشاطه حثيثة، لكنها لم تؤت أكلها أبدا، فنسب له شانئوه له أن هذا المسجد أقيم بأموال التبرعات التي حاز لنفسه النصيب الأكبر منها، غير أني أشهد أنه نظيف الوجه واليد واللسان (هذا هو الصفا يا مصطفى).

جمال حمدان

كتب كثير من الكتاب والباحثين عن الرائع جمال حمدان، من المتخصصين ومن غيرهم، ولعلي لا أضيف جديدا، لكنني أكتب رأيي في هذا الرجل من خلال مطالعة سفره الرائع (شخصية مصر- دراسة في عبقرية المكان). هذا الرجل يفيض علما وعبقرية وتواضعا. أعلم أن بعضا من هذا الكتاب مقرر على بعض الكليات، لكنني أود لو قُرر بعضا منه على طلاب الثانوية العامة أو المراحل المتقدمة، وأعتقد أن هذا الأمر في غاية الأهمية؛ لأن هذا سوف يرفع من درجة الوعي لدى الطلاب في مراحلهم المتقدمة، بأهمية مصر، وأهمية موقعها، والذي عانينا من تجاهل هذا الأمر على أعلى مستويات الدولة، عندما تم تجاهله عمدا طوال ثلاثين سنة عجفاء خلال حكم مبارك، وبالتالي فإن تدريسه بشكل سليم سوف تكون له آثار إيجابية على رفع درجة الانتماء لهذا الوطن، ومعرفة إمكانياته وموارده وأهمية موقعه بشكل عملي وجاد.

التكلف والمبالغة

مدح أبو تمام الخليفة المعتصم بقصيدة رائعة يقول في مطلعها:

ما في وقوفك ساعة من باس ⁂ نرعى ذمام الأربع الأدراس

فلعل عينك أن تعين بمائها ⁂ والدمع بين مخاذل ومواس

يصف فيها حُسن أخلاقه وكرمه وشجاعته، ويضفي عليه صفات العرب الأقدمين، ممن ضرب بهم المثل، حتى وصل إلى قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ⁂ في حلم أحنف في ذكاء إياس

فاعترضه أبو يوسف الكندي، أحد أشهر الأدباء المعروفين، بقوله: "الأمير فوق من وصفت"

فقال على البديهة:

لا تنكروا ضربي له من دونه ⁂ مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ⁂ مثلا من المشكاة والنبراس

ولما فرغ من إنشاد القصيدة، لم يجدوا في الورقة التي كتبها هذين البيتين.

والقوم الذين ضرب بهم المثل أولهم عمرو بن معدي-كرب الزبيدي، أشجع العرب وأفتكهم في الجاهلية، أدرك الإسلام وحَسُنَ إسلامه وأصبح من الفرسان المعدودين في الفتوح الإسلامية، جمعته جلسة سمر مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فسأله عمر: "من أحيَلَ رجل قابلته في صعلكتك؟" فقال: "رجل لاقيته في فلاة ليس فيها إلا هو وأنا، وهو جالس على الأرض يتناول طعامه وفوقه راحلته عليها متاعه، فطمعت في متاع

الرجل فقلت له: "يا رجل خذ حذرك فإني قاتلك"، فما تحرك ولكن قال: "من أنت؟"

فقلت: "أنا عمرو بن معدي-كرب" (وكان اسمه كافيا لإلقاء الرعب في النفوس)

فقال الرجل: "والله ما أنصفتني يا عمرو؛ أنت على فرسك وفي عدّتك، وأنا على الأرض أعزل"

فقلت له: "قم فاركب فرسك وخذ سلاحك ولا تعتل"

فقال الرجل: "لا آمنك أني إذا قمت أن تقتلني قبل أن أركب على فرسي"

فقلت: "لك الأمان حتى تركب"

فلما استوثق مني قال: "إذن فلن أركب فرسي أبدا وقد أعطيتني الأمان"

فهذا أحيل من رأيت"

فسأله عمر: "فمن أجبن من رأيت؟"

قال: "رجل كان من صفته مثلما للرجل الأول، فقلت له "يا رجل أنا عمرو بن معدي-كرب، وإني لقاتلك فخذ حذرك، فمات الرجل لساعته"

وحاتم الطائي مضرب المثل في الكرم وأشهر من أن يعرف.

كان له ابن عم (وكان غنيا)، كلما خرج حاتما في سفر، قال لامرأته ماوية: "طلقي حاتما وأنا أتزوجك"، وكانت النساء في الجاهلية هن اللاتي يطلقن أزواجهن، بأن تحوّل باب الخباء إن كان جهة الشرق حولته إلى الغرب، فقال لها ابن عمه: "أنا أكفيك أنت وأولادك، وفي مالي سعة" وألح عليها

إلى أن طلقته وحولت باب الخباء، فلما قدم حاتما هو وابنه عدي وجدها حولت باب الخباء، فقال لابنه اصعد بنا إلى الجبل.

وفي تلك الأثناء، نزل بفناء حاتم أضيافا له، فقالت ماوية لجاريتها: "اذهبي إلى ابن عم حاتم وقولي له إن أضيافا نزلوا بفناء حاتم، فأعطنا لبنا وشيئا نقريهم، وما هي إلا الساعة حتى يعلم القوم مكانك، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن وضع يده في رأسه يخلل شعره فعودي"

ذهبت الجارية فوجدته متوسدًا وطبا مملوءاَ لبنا وأمامه آخر، فطلبت اللبن منه فقال لها: "هذا الذي أمرتها أن تطلق حاتما من أجله"

فلما وصلها الخبر، أعادت ماوية باب الخباء إلى ما كان، وأرسلت الجارية إلى حاتم، فجاء يسوق أمامه الإبل ونحرها للأضياف وقضى حقهم، فقالت ماوية: "هذا الذي طلقتك من أجله، تترك أضيافك بلا قِرَى". (القرى هو طعام الضيف).

وأما أحنف، فهو الأحنف بن قيس المشهور بالحلم، قام ابن أخيه بقتل ابنه، وأتوه به موثوقا ليقتله قودا، فما كان منه إلا أن فك وثاقه وقال له: "يا بني، ما زدت إلا أن قللت عديدك، وفجعت أمه به" وودى أم الصبي من ماله وأطلق سراحه.

وإياس بن معاوية المزني، هو أحد رجلين بعث عمر بن عبد العزيز إلى واليه في المدينة أن يولي أفقههما القضاء، هو أو القاسم بن ربيعة الحارثي، فجمع بينهما والي المدينة، وكان الصحابة والتابعين يتدافعون أربعة أشياء، الإمامة والقضاء والوصية والفتوى، فلما جمع بينهما والي

المدينة، سأل إياس فقال له إياس: "اسأل عني وعنه فلان وفلان"، وكان القاسم يأتيهما ولا يعرفان إياس، فطمع إياس أن يشيرا عليه بالقاسم وينجو منها هو، ففطن القاسم لذلك فقال: "أيها الأمير، لا تسأل عني ولا عنه. وإني والله لا أصلح لها، فإن كنتُ صادقا فينبغي أن تأخذ بقولي، وإن كنت كاذبا فإنها لأحراهما".

فقال إياس: "أيها الأمير، إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم، نجّى نفسه منها بيمين كاذبة يصوم عنها ثلاثة أيام ويستغفر الله، ويلقيني فيها"، فقال الأمير: "أما وقد فهمتها فأنت لها".

كان مرافقا للإمبراطور ثم لنائبه

كان ياما كان، في سالف العصر والأوان، إمبراطورا أسمر البشرة داهية تولى أمر البلاد والعباد في بلد له من المزايا مالم يجتمع لأي بلد آخر في المعمورة، من موقع فريد، ومناخ معتدل، وكتب الكاتبون وأسهبوا في وصفها، لكنهم لم يصلوا أجمعين شأو أحد أبناءها وأعظمهم عشقا لها، فتىً أسمر نحيلا يقال له (الحمداني)؛ إذ طرز عشقه لها بالأدب ووصفها بالعلم وتركها مرغما.

شاء القدر أن يضع هذا الداهية نائبا أول وحاملا للأختام للإمبراطور الكبير، ثم تولى الحكم بعد وفاة الإمبراطور الكبير بشكل مفاجئ، ولم يتجاوز الثانية والخمسين من عمره القصير بحساب السنين، والطويل جدا بحساب الإنجازات والإخفاقات. وأراد القدر أن يتولى هذا الداهية مقاليد الأمور من بعده، في الوقت الذي ظن به زملاؤه أنه لين العريكة هين يسهل قياده، ولما لم يجدوا سبيلا للسيطرة عليه دبروا حيلة لإسقاطه، وإذا به يستبقهم وفي ليلة واحدة ينقض عليهم ويلقيهم في قيعان السجون عن بكرة أبيهم، وتستقر له الأحوال ليتفرغ لإدارة البلاد، ومداراة العباد، ومواجهة الأعداء الذين يتربصون بالإمبراطورية. وكان صاحبنا محور هذه القصة مرافقا للأمير الثاني نائب الإمبراطور الأسمر، وهو وسيمٌ رشيق القد، فارع الطول، ذو عينين ثاقبتين وجسم رياضي، فكهٌ بالرغم من ملامحه الجادة والحادة، نظيف اليد واللسان. كان صاحبنا مرافقا شخصيا له، وقد عمل في عدة مواقع داخل المطبخ الإمبراطوري وقريبا منه.

كنز معلومات وذكريات لا ينضب، يملك ذاكرة فوتوغرافية، يتذكر حتى أدق التفاصيل والمشاهد عن فترة عمله المليئة بالإثارة والأسرار. ربما أملت عليه طبيعة عمله قوة الملاحظة والاهتمام بأدق التفاصيل، والعقلية البوليسية المرتابة جعلته يمعن النظر في الأحداث والأشخاص والأماكن.

عمل مع الأمير الثاني كحارس خاص يوم كان نائبا للإمبراطور الاسمر.

ذكر أن الأمير كان يفضل الإقامة في حاضرة ساحلية أيام حكمه الأولى، ثم حدث أن طلب من أمير إحدى الدول الغنية والتي تتمتع بوفرة ما بعد الطفرة، أن يموّل صفقة لشراء القمح لبلاده، فتعلل الأمير بضيق ذات اليد، فاتصل الإمبراطور بالشيخ رائد الذي مولها راضيا.

يحكي أن الإمبراطور كان يحب تناول المثلجات في الحديقة عصر كل يوم، لا يستثني من ذلك نهار رمضان. وكان لا يتورع عن النطق بأي لفظ ، يروي صاحبنا أن الإمبراطور الأسمر اصطحب حراسه يوما لحضور فرح حمّال في قرية صغيرة؛ وذلك لأن الرجل آواه أيام هروبه من العسس وأمّن له عملا معه، فلما بلغه أن الرجل يعاني من تجهيز ابنته للزواج ساعده بالمفروشات، ولم يكتف بذلك بل حضر الزفاف إكراما له.

اعتدل صاحبنا في جلسته، ثم قال بصوت يغلبه الحنين: "كان الإمبراطور الأسمر يحب أن يقضي العشر الأواخر من رمضان معتكفا في منطقة نائية، وفي أول يوم ذهبنا فيه حانت صلاة الفجر، فقام إمام المسجد الصغير ليؤذن، فلما رفع عقيرته بالأذان فوجئنا بمن يضع يديه على فيه ليمنعه من الأذان، فلما اعترض المؤذن قائلا إنها صلاة الفجر، قال الرجل

من أمن الإمبراطورية "يا عم الراجل لسه نايم، أذّن بشويش!"، فأتم الرجل أذانه همسا.

لما حانت صلاة العيد، كان من الضروري أن تكون في جمع من البدو المقيمين في المنطقة؛ لإضفاء طابع التلقائية والعفوية على الجمع المصلين وأمام الناس والصحافة، فكان أن أتوا بشيخ القبيلة لمقابلة القائد مسعود حنفي (رحمه الله) كبير الحراس في المقر الإمبراطوري، الذي أمره قائلا له: "كن على باب المسجد لتمنع أيا من الغرباء الذين لا تعرفهم ولا ينتمون إلى القبيلة". وكان من استعداد الحراسة أن أرسلوا من يجلب لهم أثواب كأثواب البدو، وأخفاف باصبع مثلما يلبس الأعراب. ولما حانت الصلاة دخل الحراس واحدا تلو الآخر يرتدون الثياب البيضاء إلى المسجد، والشيخ يراقبهم وهو يتصبب عرقا في عز الشتاء القارس. ولما سِئل الرجل عن المصلين إن كان فيهم أحد غريب بعد انقضاء الصلاة، فقال الرجل وهو في حالة من الفزع: "كلهم غرباء، ليس فيهم أحد من القبيلة، ولا حتى بدويا واحدا!" فقالوا له "كيف عرفت؟" قال: "لأنهم حُمر الأقدام".

تكررت نفس القصة مع الإمبراطور الأخير، لكن الفارق أنها مع الأخير كانت بعلمه، أثناء زيارة له إلى إحدى الحواضر؛ إذ أحضروا فلاحا ليقابله في أثناء زيارته، وقبلها بأسبوع في قصر الإمبراطور تم إعداد الفلاح إعدادا دقيقا، وتلقينه ما يقول، وكيف يسلم عليه، وكيف يحتضنه برفق، حتى الحوار المتبادل بينهما تم الاتفاق عليه وتلقينهما إياه.

لكن القصص الحقيقية مثل قصة الفتى ابن القاضي الذي أطلق سهمين من كنانته أمام القصر الإمبراطوري، فقامت القيامة وأردوه قتيلا أمام

البوابة، وتناوب الحراس إطلاق السهام عليه حتى بعد سقوطه؛ لأن من يسكت يحاكم بتهمة الإهمال، وبالتالي فقد أراد كل منهم إثبات يقظته ووجوده بسهم على الأقل. كما أن رجل الحاضرة الساحلية أيضا كان حقيقيا، الذي اعترض موكب الإمبراطور ليقدم له شكوى بها بعض المطالب أثناء زيارته، لكن الحراس أرادوا أيضا إثبات وجودهم بوابل من السهام والرماح تكفي لصد كتيبة.

كان أيام نيابته إبان حكم الإمبراطور الأسمر، وأيضا في سنوات حكمه الأولى، جيدا، وذلك عندما كان في إيوانه عبد الوهاب فهيم، لكن الأمور اختلفت بعد رحيله. كان اختياره لعبد الوهاب فهيم بسبب ذكائه الحاد، وكان ذا ذهن حاضر متقد، أما اختيار وسام عبد العظيم فلإتقانه الألعاب الرياضية التي كان يحبها جيدا، إذ أن في عهده كان في معظم الأماكن التي يرتادها أو يتوقع منه ارتيادها أنشئت ملاعب لتلك الرياضة.

عندما اختلف عبد الوهاب فهيم مع داوود حلمي، تمت تنحية عبد الوهاب عن السكرتارية بأسلوب مهين، نتيجة وشاية مُحكمة من داوود حلمي بسبب محادثة خاصة تم عرضها على الإمبراطور في غياب عبد الوهاب، فأصدر أوامره بعدم دخوله من البوابة الرئيسة، وتم سحب الحراسة التي كانت ترابط بصفة مستمرة تحت مسكنه، وسحب كافة الميزات التي كان يتمتع بها، بما في ذلك الخيول المطهمة والرواحل الفارهة التي كان يتفاخر بها في غدوه ورواحه.

توافق وسام عبد العظيم مع داوود حلمي تماما، ودانت لهما الأمور بعد رحيل عبد الوهاب فهيم، ورضخ وسام عبد العظيم تماما لشخصية داوود حلمي القوية والنافذة حتى مع الإمبراطور.

ظهر على الساحة الخاصة أصغر أولاد الإمبراطور، وكان الجميع يخطبون وده، ويهيّئونه للوراثة قبل زمن بعيد من ظهور الأمر على الساحة العامة، وقد أعجبت الفكرة الإمبراطورة الجميلة، التي تشبه الإمبراطورة أوجيني، ورأت أن الابن هو الوريث الطبيعي والشرعي، ويبدو أن شخصياتهم أصابها التغيير بعد مرور عقد على توليهم أمر الإمبراطورية. اعتدل في جلسته ورشف قليلا من الشاي بالنعناع، وقال: "أذكر أننا زرنا ناديًا اجتماعيًا بصحبتهم، وقد قمنا بإبعاد الناس ليتمكنوا من دخول النادي على راحتهم، فانتابها الغضب من تصرف الحراس وقالت نصًّا: "يا جماعة النادي ده موش بتاع أبونا.. ده إحنا مجرد أعضاء فيه". كان هذا أيام كان نائبا للإمبراطور الأسمر.

يقول: "سمعتها مباشرةً تتذمر من تجاهل الملكة زوجة الإمبراطور لها ولمشاعرها، وتشكو لزوجها أنها تود المشاركة في الأنشطة الاجتماعية التي تقوم بها، فطلب منها النائب أن تسايرها بقدر الإمكان. وبعد توليه سدة الحكم، تخلصت من كل من كان له علاقة من قريب أو بعيد بالإمبراطورة السابقة، التي كانت تتجلى فيها أسمى آيات الأرستقراطية شكلا وسلوكا.

حتى أن إحدى سيدات المجتمع أشادت بالدور الاجتماعي للإمبراطورة الأولى السابقة بعد تولي زوجها مقاليد الحكم، فقالت نصا: "الست دي

متحضرليش اجتماعات تاني". وأنشأت الملكة مشروعا للثقافة والقراءة الذي نحلته من صاحبه، ومشروعات أخرى. ونسي الناس مشروع (الولاء والأمل) الذي أنشأته وقامت على رعايته الإمبراطورة الأولى السابقة.

ومن ثم بدأت تحيا الحياة الأرستقراطية كجاكلين أوناسيس، بدأت تأتيهم مياه الشرب والمأكولات من الحواضر الأوروبية، وما إلى ذلك.

كان الابن الأكبر له اتجاه خاص بمفرده في البداية، ولكن بعد فترة بدأ ينحو نحوهم. وحدثت قصة أقرب ما تكون إلى الروايات، وهي أنه حدثت مشادة بين الابن الأكبر ونجل أحد القادة المتقاعدين. حدثت المشادة في أحد الخانات، وتطاول الفتى على الابن الإمبراطوري، فطلب الأخير من كبير البصاصين في العاصمة أن لا يبيت هذا الولد في بيته الليلة.

وحدث أن تمت تصفية الفتى جسديا، حتى بعد أن خرج لهم من شرفة منزله بإزاره فقط معتذرا، وأشار لهم أنه غير مسلح، وبالرغم من ذلك أمطروه بوابل من سهام البصاصين .

كـريمـان

كل ليلة كانت تقوم مجموعة من خاصة الحراس باصطحاب السيدة كريمان إلى استراحة في احدى الجزر النائية لملاقاة الابن الأصغر للإمبراطور في المدينة الساحلية الجميلة، على اعتبار أنها صديقته. ولما علم الإمبراطور بالأمر تحدث إلى كبير العسس طالبا إبعاد كريمان عن ابنه، فأصدر أوامره إلى مجموعة من رجاله باتخاذ اللازم، فاعترضوا قافلتها على إحدى الطرق الصحراوية ولقنوها درسا قاسيا (علقة موت)، رحلت هوادجها من بعدها إلى إحدى الحواضر الأوروبية للعلاج. ولما علم الابن بما حدث، أراد الانتقام من كبير العسس، وقوبل بالرفض الشديد من والده، إلا أنه طلب إبعاده، فوافق الإمبراطور وأهدى الرجل عددا من صُرر المال إكراما لمجهوده، ومن ثم صرفه عن الخدمة.

ولما عادت كريمان من رحلة العلاج، لم تدخل البلاد من الطرق المألوفة حرصا على عدم رؤيتها من قبل العامة والمتلصصين لنشر الأخبار، بل دخلت من طريق غير مألوف إلى بيتها بعيدا عن العيون المتربصة.

تزوج بعدها الأبن الأكبر، ثم تزوج أيضا الابن الأصغر بعده بفترة.

بعدها بدأت الحاشية في الاهتمام بالمظاهر، ومنها المبالغة في الاحتفال بعيد ميلاد الإمبراطور، وما تبعه من مظاهر البذخ ونشر الزينات والأنوار في المناطق المحيطة بالمقرات الملكية والاستراحات. ولكن المثير في الأمر أنه كان يهمهم في المقام الأول ليس الإمبراطور ولا الابن الأصغر ولا حتى الابن الأكبر بل الحفيد، فمن يرضى عنه الحفيد تنفتح له طاقات القدر، ومن يغضب عليه يصبح يومه أسود من قرن الخروب.

كان الحفيد يجلس على حجر جده، ليؤدي له التحية قواد كبار وشخصيات من ذوي المراتب العالية.

واستمرت القصة على هذا المنوال العبثي، وقد ترك الإمبراطور الحكم فعليا بعد ما يربو على العقد من توليه مقاليد الأمور، وتولى الابن الأصغر تسيير الأمور بعدها، وبدأ يضم أصحابه إلى الفريق الإمبراطوري المهيمن على الأمور، ومن ثم بدأ ظهورهم إلى العلن في شكل مناصب سياسية وحكومية وحزبية.

كان الشريف رفعت يجلب الشعراء والأدباء وناشري الأخبار إلى القبائل لحضور مجلس الإمبراطور، ويلقنهم الأسئلة التي سوف يطرحونها عليه. كان منهم مثلا مسعود أبو ليلة وسناء الهندي، التي أول ما شاهدتها السيدة الأولى حتى قالت "البت اللي أم .... برا دي متجيش هنا تاني"، وكان الشريف رفعت يأمر القوم بحفظ الأسئلة التي سوف يوجهونها للإمبراطور، فلان يسأل هذا السؤال والآخر يسأل كذا، ومن ثم يعود إلى الداخل ليبلغ الإمبراطور بالأسئلة التي سوف يسألها الحضور مع إجاباتها النموذجية، باختصار كان الشريف يضبط الإيقاع العلني الإمبراطوري بشكل بارع ومحترف.

أميرة الجنيات وألف ليلة وليلة

كانت الجنية كالفراشة الرقيقة التي تجوب الحقول والحدائق بحثا عن الرحيق، لكن هذه المهمة كانت ومازالت محفوفة بالمخاطر. وقد جمعت كثيرا من الرحيق الذي بدا أنه سوف يتناثر منها بعد أن أثقلها جمعه وشق عليها المحافظة عليه، فكان لابد لحارس الحديقة من التعامل معها بما يجب. ولما كان معاونوه يفتقرون إلى الخيال الخصب، فقد تعاملوا مع تلك الفراشة بكل قسوة، وقُذفت إلى قيعان التاريخ الساحقة، لتستقر جثة هامدة في إحدى زواياه، بعد أن كانت ملء السمع والبصر.

الشرفة

كان الريشي دبورا شرسا، وقد لعب دورا خطيرا أيام الإمبراطور الأول، وهو من احتوش الرجال الذين أرادوا إحياء لعبة البرامكة مرة أخرى. وكان الرشيد الجديد أصعب مراسا وأكثر دهاءَ من الرشيد القديم، فرتب أوراقه كما يحب، وبضربة واحدة أجهز على المراكز القوية بأمر مباشر منه، عن طريق مجموعة من حراسه يقودهم الريشي. بالرغم من أن هذه العملية كانت خارج سلطة الحراس، وتم تقريبه بعدها وزاده الإمبراطور رفعة وأغدق عليه، لكنه شعر أن كل ذلك دون ما يستحق، وأبدى تذمره سرا في بادئ الأمر، ثم علانية، فتقرر إلقاؤه في غياهب التاريخ السحيقة. الغريب أن حارس الحديقة الذي فعلها، مات بعد معاناة شديدة مع مرض مجهول، وقد اعترف قبلها أنه أذنب كثيرا في فعله هذا لكنه كان مأمورا.

تروي الحكايات أن الإمبراطور الأول كان ابن بلد كريم وشجاع، وبلغة أهل البلد (جدع). كان غالبا ما يسبق الحراس أثناء خروجه في زياراته، لكن أيام الإمبراطور الأخير تغير الوضع جذريا؛ حيث كانوا يخرجون قبل الزيارة بثلاثة أيام كاملة لاستلام المواقع.

وكان يخرج مع الملكة ستة حراس فقط برماحهم وسهامهم للخدمة والتأمين، ويخرج مع الأخيرة من ثلاثمائة إلى أربعمائة ما بين فارس، وحارس للخدمة والتأمين، بخيولهم وعددهم وعدتهم.

يذكر أن لهم ضحايا كُثُر من أفراد الحراسة وموظفي الإيوان وغيرهم لأسباب تافهة.

ينحني صاحبنا إلى الأمام ثم يعتدل في جلسته قائلا: "لم يكن الإمبراطور إلها أبدا، ولا يدعي الحكمة. لكن من حوله جعلوه كذلك، فأمانيه وأحلامه وشطحات فكره أوامر، وهو لا ينطق إلا حقا ولا يلفظ إلا حكمة، حتى السخافات التي يتفوه بها من الدرر المكنونة والحكم الغالية. المشكلة أن هؤلاء القوم هم من يتحكمون في كافة الأمور؛ في كل المواقع التي اقتربت منها وجدت أن السكرتارية أخطر موقع في أي مكان؛ فهؤلاء القوم يفعلون أمورا غاية في الغرابة، والإمبراطور مبسوط طالما أن الأمور تسير بشكل حسن وجيد، والحالة تمام والشعب مبسوط، والشعراء يتغنون بأمجاده الحقيقية والمتوهمة ليل نهار، فلماذا التعب والبحث!؟

لما سألته عن الناصر صلاح الدين لماذا لم تنطبق عليه تلك النظرية، قال: "ذاك الناصر كما يقول كاهنه، رجل غير قابل للفساد".

يعود إلى ما بدأه قائلا: "إن كتبة الدواوين وكاتمي السر في مفاصل الدولة الرئيسة هم سبب كل فساد، وخصوصا في قمة الهرم الإداري للدولة، ولا أستثني جهة من ذلك. حتى وإن كان الإمبراطور صالحا، فهم قادرون على تغييره.

حدث هذا مع ابن لأحد الوزراء، وكان يعمل في العسس، فأوحى له أمين السر أن هذا العمل لا يناسب ابنه، فاتصل الوزير بزميل له طالبا منه ضم ابنه إلى العمل لديه، فرد عليه قائلا" "الأمر ليس بهذه السهولة؛ فهناك اختبارات وتدريبات ومواصفات معينة لا تنطبق عليه"، ولم يوافق على ضمه إلى تلك المصلحة بسبب ضغائن شخصية، بالرغم من دخول

أفراد آخرين، فأسرّها الوزير في نفسه ولم ينسها له. وجاء دور الكتبة مرة أخرى، فقالوا له طالما لم يدخل ذلك المكان المحصن فليدخل القضاء، وقد كان. نقل إلى النيابة العامة، ومن ثم إلى منصة القضاء، وأصبح ذات يوم رئيس محكمة".

يقول: "وهذه قصة لابن أحد الوزراء، صبيحة الامتحان رفض الذهاب إلى الكلية بحجة أنه لم يذاكر المادة، فتم الاتصال بدكتور المادة، فطلب حضوره الامتحان وكتابة اسمه على ورقة الإجابة فقط. وعند ظهور النتيجة، حصل على خمسة وثمانين في المائة على هذا الامتحان. والطامة الكبرى أن الولد كان غاضبا لأنه حصل على هذه الدرجة فقط وأقل من زملائه المجتهدين!

وقد فشل هذا الولد فيما بعد في حياته العملية والخاصة أيضا، بعد أن عمل في أكثر من جهة. كان يتنقل بينها ويغيرها كما يغير جواربه.

يقوم طاقم الكتبة بتوجيه الشخصية وتكييف الوقائع حسب مرادهم بأي دواع، سواء أكانت أمنية أو سياسية، وقادرون على إعادة ترتيب الأوراق بشكل بارع.

لما سألته عن أسباب فساد أمين سر الإمبراطور، ودخوله في دوامة الكسب غير المشروع، ذكر أن السيد وسام كان واقعا تحت تأثير زوجته، التي قامت بإنشاء شركات متعددة، وكانت تتلقى اتصالات من رجال الأعمال لتسهيل أمورهم. كان وسام يسكن في شقة متواضعة مكونة من ثلاث غرف، ثم تركها وبنى فيللا أنيقة مكونة من ثلاثة طوابق، وبدأت الأمور تسير كما يريد؛ إذ أن من يحادث وسام فكأنما يخاطب الإمبراطور نفسه،

حتى أنه بعد ثورة الزنج، بعد أن أوشكت البصرة على الخراب، والإمبراطور تحت المحاكمة، والدنيا مقلوبة، والبلد في حالة فوضى عارمة، كان وسام مازال حرا، ومازال له بعض النفوذ، وكان يقوم بزيارات شبه دورية لبعض الوزارات لأمور مجهولة.

وسام دفعة المستشار الكهل، وكانت العلاقة بينهما وثيقة، حتى أنه سرت شائعات عن قرب توطيد العلاقة بنسب وصهر، ووسام كان زميلا لأمين السر السابق عبد الوهاب فهيم، وكانوا في رفقة الإمبراطور أثناء تلك الزمالة.

المنصة

يقول أن نظم الحراسة تختلف باختلاف الدول، فكما تختلف المدارس الأدبية والفنية؛ فهناك الكلاسيكية والانطباعية وما إلى ذلك، فإن نظم الحراسة كثيرة، وقد كان رجال الإمبراطور يعتمدون النظام الروماني، فكما سادت ثقافة الرومان في الأقاليم التابعة لهم، سادت أيضا نظمهم في الإدارة. حسب ذاكم النظام ينبغي أن تكون هناك مجموعتين للحراسة، تسمى أولهما (مجموعة الستر) والثانية (الإخلاء)، بتسليح مختلف لكل منهما، فتحمل مجموعة الستر الرماح الطويلة والتروس، وعندما تقع الواقعة تقوم مجموعة الستر بالتعامل مع المهاجمين ورد السهام، بينما تقوم مجموعة الإخلاء بتطويق الشخصية المراد حمايتها وإخراجها من أتون المعركة تحت حماية التروس إلى مكان آمن متفق عليه مسبقا، وحسب خطة دقيقة. يمضي في السرد قائلا: "كان من المقرر أن تكون مجموعة (الستر يوم العرض) أمام الإمبراطور، وتكون مجموعة الإخلاء من خلفه. لكن شيخ الحراس صاحب القلنسوة الطويلة المزركشة زمنئذ، أصدر أوامره بعدم تواجد المجموعتين في أماكنها المحددة لها، قائلا لهم: "كونوا من خلف السماط (اشربوا شاي وقهوة)"؛ مبررا ذلك بأن الإمبراطور لا يحب لظهور بمظهر المحتمي خلف الحراس والمتاريس، وقد كان. ولما وقعت الواقعة، وحدث الهرج والمرج، عادت أطقم الحراسة إلى مواقعها بعد فوات الأوان لتتعامل مع الواقع.

يقول أن الرجل لفظ أنفاسه في المشفى، لكنه كان طوال الطريق واعيا لما يدور، غير أنه لم يتحدث بكلمة. وقد تواجدت أسرة الإمبراطور في المشفى

ساعة دخوله، وكانت الملكة متماسكة، غير أن إحدى الأميرات قالت: "أومال فين الناس اللي كانوا بياكلوا كويس وبيتدربوا كويس!؟".

قبل دفن الإمبراطور، سرت شائعة أن الجثمان قد يٌختطف، وبالتالي أُتخذت أقصى درجات الحيطة والحذر من مجموعة الحراسة خلال الجنازة.

***

ذات يوم كنت في إحدى المدن، وبصحبتنا أحد المعارف. ولما كانت الطرق في تلك المدينة حينها ومازالت تحت الإنشاء، فقد امتلأت بالحفر والمطبات، بل والأحجار الكبيرة في الشوارع، وحدث أن رأى حجرا في منتصف الطريق، فأوقف السيارة لينزل ويزيحه عن الطريق رحمة بالمارة؛ ولما كان الحجر كبيرا، نزلت أعاونه، وكان نزولنا من السيارة سويا في وقت واحد. ولما عدت نظرت إلى صاحبه في المقعد الخلفي للسيارة، وبابه مفتوح وقد اصفر وجهه وعلاه الشحوب، ولما تمالك نفسه سألني عن سبب نزولنا فجأة، فعرّفته السبب، فازدرد ريقه وقال: "ظننت أنكما وجدتما شيئا مريبا في السيارة فنزلتما فجأة في منتصف الطريق، ولقد تملكني الرعب حتى لم أستطع النزول". كدت أفقد أنفاسي من شدة الضحك ساعتها، ومازلت كلما تذكرت هذه الواقعة لا أتمالك نفسي من الضحك.

من جاور السعيد

قرات بحثا علميا أجري في استراليا، تقول نتائجه أن الطيور ذات الأشكال والألوان الجميلة، تعيش في الأحياء الراقية من المدن أو بالقرب منها؛ وأن الطيور ذات الألوان الداكنة والأشكال القبيحة، والتي تعيش على القاذورات، تسكن الأحياء العشوائية أو بالقرب منها.

وقديما قال المتنبي بالملاحظة فقط ودون عناء البحث:

خير الطيور على القصور وشرها ⁂ يأوي الخراب ويسكن الناووسا

الموت

ما هي حقيقة الموت؟ وما هي أبعاده؟ وما هي المشاعر والأحاسيس التي تنتاب المحتضر؟ لم يعد أحدا ليحكي لنا!

دارت فكرة الموت والخلود والبعث على ألسنة الفلاسفة والشعراء ورجال الدين، وأريق كثير من المداد في استجلاء حقيقتها. أنا اعتقد بدايةً أن الحياة جزء قصير من أعمارنا، التي أظن لو افترضنا جدلا أن حياة الإنسان يوم كامل أربعة وعشرين ساعة، لكانت الفترة منذ ولادة الإنسان إلى أن يواريه التراب هي الخمس ثوان الأولى من الأربع والعشرين ساعة، ومرحلة الموت ما هي إلا انتقال إلى عالم واضح لا لبس فيه ولا غموض؛ حيث تتضح الحقائق الكبرى مجردة وواضحة وسهلة الفهم والإدراك، لا تحتاج إلى تفسير المفسرين وأقوال الفلاسفة وتهويمات المتصوفة، بسيطة وعميقة يوضحها قوله تعالى "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"

[سورة ق]، كلام لا يحتاج إلى تفسير ولا إلى كد ذهن، فقط خذه كما هو طازجا كالماء الجاري، وصدق الله العظيم.

لاحظت أن معظم الأخيار يموتون في سن صغيرة، ولم يلبثوا على ظهرها إلا قليلا، والعكس صحيح. وبما أن كل ما يجري في الكون يجري وفق حكمة بالغة وقدرة مقتدرة، فاعتقادي أن الله يعفيهم من مقاساة الدنيا، فيستردهم إلى جواره رحمة بهم؛ وما كان وجودهم في الحياة إلا ليعلم الناس أن الخير موجود، وأن الفضيلة باقية بالرغم من قصر المدة.

الموت

كثيرة هي اللحظات التي تمر على الإنسان ويتمنى فيها انقضاء أجله لما قد يحل به من نوازل الدنيا، لكن اعتقادي أنه طالما لديك نَفَس يتردد في صدرك، فأولى بك أن تستثمره في عملك لما بعد الموت، وأن الله يطيل لك لتستزيد، هذا إن كنت برا.

حرفة الأدب

للأستاذ طاهر أبو فاشا كتاب جميل اسمه (الذين أدركتهم حرفة الأدب)، وهو يصر على أنها (حُرفة) بضم الحاء كما لو أنها (حُرقة)، وذلك أن من تعاطى الأدب والشعر قلما يكون موسرا، بالرغم من أن هناك أمثلة على الموسرين من الشعراء والأدباء، مثل النابغة الذبياني، الذي كان يأكل في آنية الذهب، ومنهم شوقي بك مثلا، وكثيرون، غير أنه يصر أن القاعدة هي الإقلال والعُدم.

عبد الحميد الديب



كان الشاعر الكبير عبد الحميد الديب مثالا للإسراف وعدم النظر في أمور المال، يصرف كما لو كان مليونيرا، ولم يثبت في وظيفة قط؛ لأنه كان يمل العمل الحكومي. وقضى معظم سنوات عمره خاليا من موارد الرزق، أراد صديقه رئيس تحرير الأهرام حينها مداعبته، فنشر خبر وفاته في صفحة الوفيات، وفي اليوم التالي قرأ صاحبنا الخبر فاستشاط غضبا، وتأبط الأهرام قاصدا الأهرام، ولما التقى برئيس التحرير انفجر فيه غاضبا، فاعتذر له وأكد له أن ما حدث كان خطأ من المحرر، وأنه سوف يعالج هذا الخطأ بنشر تكذيب له في صحيفة الغد. وفي الغد صدر التكذيب كما يلي: (نما إلى علمنا بطريق الخطأ وفاة الشاعر الكبير عبد الحميد الديب، والحقيقة أنه حي ولكنه لا يرزق)!

الشاعر محمود الخفيف



كثيرون هم الشعراء الذين لم ينالوا حظهم من الشهرة أو التنويه في مناهج الدراسة، والذين غصت بهم الحياة الأدبية في القرن العشرين. صحيح أن أضواء شوقي وحافظ الباهرة -والتي استمرت تغشي العيون حتى الآن وإلى ما شاء الله-غضت الطرف عنهم، لكن مازال لهم بريقهم الذي لا يخبو ولا ينطفئ، وتحتاج الأجيال الجديدة أن تعرف أن هذه الفترة الفريدة في غناها في تاريخ مصر، كانت حافلة بأساطين الأدب والفكر، كما كانت حافلة بفرسان السياسة، من هؤلاء الشاعر الكبير محمود الخفيف.

كانت تجمعه أواصر الصداقة الوثيقة بالشاعر الظريف محمود غنيم، وكانا يتعاطيان الشعر والأدب، ويتهاجيان دون إسفاف.

كانت النكتة الطريفة دون تجريح أو إساءة أو ابتذال هي السائدة.

التقيت بابن أخيه صدفة في رحلة بحرية، والذي كان يعمل أستاذا بإحدى الجامعات السعودية، وقصّ علي أن الشاعر الكبير عانى في أواخر أيامه من النظام الناصري كما عانى كل من انتمى إلى الوفد أو كانت لهم مواقف مختلفة ولا أقول معارضة.

أولم شاعرنا ذات مرة لمجموعة من أصدقائه منهم الشاعر محمود غنيم، الذي ما إن عضه الجوع حتى قال:

أيها الشـاعر جعنا ** هات لحمًا ورغيفا

واسقني شايا ثقيلا ** قبّـح الله (الخفيفا)

الأخلاق

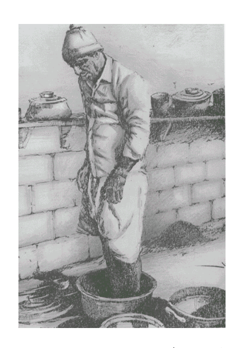
كلما ازداد الناس جلافة، هبطت الذائقة الفنية وانتشرت النكت القبيحة؛ فالطفل المؤدب تجرحه النظرة، وطفل الشوارع لا تردعه غالبا إلا العصا.

من ضمن ما نجح فيه نظام مبارك وأركان دولته، التسبب بانهيار منظومة الآداب والأخلاق لدى عدد لا بأس به من الشعب المصري؛ وذلك بسبب رعايته للفن الهابط والثقافة الضحلة، والناس على دين ملوكهم. كان سائق التاكسي يخاطب الراكب بقوله يا (بيه) والسيدة يا (هانم)، الآن ينظر إليك شذرا إذا تأخرت في دفع الأجرة أو بدا عليك التذمر من ارتفاعها. كان المحصّل في القطار يعامل الركاب بالاحترام الواجب، أما الآن فإنه يعتبرهم محتالين إلى أن يثبت العكس، تنبيك بذاك نظراته المستريبة.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ⁂ فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

- شوقي بك

مبيض النحاس ومهن انقرضت



مهنة مبيض النحاس من المهن المميزة في القرى المصرية، وكان يمتهنها بعضا من (الحَلَب) الغجر الذين يطلقون عليهم في بلدتنا اسم (الحَلَبَة) بفتح الحاء واللام، ولست أدري سبب هذه التسمية؛ هل لأنهم قدموا من حلب مثلا؟ لا أدري. المهم، كان هؤلاء القوم يأتون في مواعيد محددة وينصبون أخبيتهم في ساحة واسعة، تظللها شجرة لبخ عتيقة وارفة الظلال يسمونها الرَهَبَة بفتح الراء والهاء. كانت نساؤهم يتجولن على بيوت البلدة للتسول، وكان الرجال يقومون بتبييض قدور النحاس، تعطيها لهم نساء وأطفال البلدة، وكان مرآهم وهم يقومون بتبييض النحاس مصدر ترفيه للأطفال، فكنت أتابعهم بشغف وننتظر اللحظة التي يقوم فيها المبيض بوضع قدميه داخل القدر، ويسند يديه إلى الجدار، ويفرك القدر بقدميه في حركة دائرية، وهو يلف خصره يمينا وشمالا أفضل من آلات الرياضة التي تباع الآن لتنحيف الخصور وإفراغ الجيوب، ومن ثم تخرج من بين يديه قدر النحاس تلمع كالفضة، وكان يأخذ على القدر الواحدة قرش صاغ كامل. حلّت الآن الأواني البلاستيكية والألومنيوم محل القدور النحاسية.

ومازال هؤلاء القوم يترددون على ذات المكان، ولكن للتسول فقط.

بائع العرقسوس



وطئت قدماي القاهرة قبل قنا، ومع ذلك لم أشاهد بائع العرقسوس في القاهرة وإنما شاهدته في قنا في أول زيارة لي، ورأيته في ملابسه المزركشة الملونة ووجهه الصبوح، والصاجات التي يجلجل بها في نغم رتيب موزون، فكأنما خرج من عمق الحكايات التي كانت ترويها الجدات عن الجن وعلاء الدين، تظن أنه خرج لتوه من المصباح، وأنه يوشك أن يطير. ورأيت الناس يتحلقون حوله وهو يسقيهم العرقسوس ويشربونه بنهم شديد، قلت في نفسي لابد أنه مشروب لذيذ، وكان الكوب منه بخمسة مليمات، يعني تعريفة بلغة تلك الأيام. تقدمت صوبه ونقدته التعريفة مقدما، فوضعها في إناء فضي مشدود إلى خصره بإحكام، فأصدرت جرسا موسيقيا جميلا، ثم مد يده إلى كوب نظيف ورفع الإناء الضخم المليء بالعرقسوس إلى أعلى والكوب إلى أسفل، وانحنى بشكل قوس يكاد يلامس الأرض حتى امتلأ الكوب وغطته الرغوة الذهبية، وأعطانيه. لونه بني رائق لامع وجميل، وأنا أمنِّي النفس بمذاق لا يقل روعة عن الشكل والأداء المصاحب، وما إن رفعته إلى شفتيَ، وتسللت رائحته إلى خيشومي، وتحسست طعمه؛ حتى مادت الأرض تحت قدميَ، وشعرت بطعم غريب في حلقي وكأنما انزلقت إلى هوة بعيدة القرار. تماسكت بصعوبة وأعطيته الكوب كما هو، ومضيت لطيتي. وما ذقته مذ ذاك الحين أبدا حتى الساعة.

جريشا أوجانسيان

أرمني سوفيتي، قبل انفلاق وتشظي الاتحاد السوفيتي وإعادة تشرذمه، طبقا للجلاسنوست والبيروسترويكا اللتين ابتكرهما جورباتشوف ليفكك أوصال الاتحاد السوفيتي إلى عناصره الأولية (ويخلي اللي ما يشتري يتفرج على الاتحاد الذي كان ملء السمع والبصر)، صديقي جريشا الأرمني يحب العرب، ويكره الأتراك كرها شديدا، والروس بدرجة أقل؛ بالنسبة للأتراك السبب معروف، لكن لماذا يحب العرب بالرغم من أن العرب فتحوا أرمينيا قبل الأتراك بقرون عديدة وتركوا فيها آثارهم!؟ هو يشعر بأن العرب ظُلموا في العصر الحديث كما ظُلم الأرمن في العهد التركي والسوفيتي، وكان يعتبر الروس محتلين. كثير من الألفاظ العربية متداولة حتى الآن في لغة الأرمن، بالرغم من إحلال اللغة الروسية محل لغتهم الأصلية في الحياة العامة والرسمية. في جلسات السمر كنت أمتِّعه بموسيقى عبد الوهاب والسنباطي، وحكايات عن عبد الناصر؛ وكان يعذبني بموسيقى خاتشاتوريان وتاريخ أوردجونيكيدزه؛ الأول موسيقي أرمني مشهور، والأخير ثائر جورجي شارك في الثورة البلشفية عام ١٩١٧. وكان صاحبنا يسكن في شارع يحمل اسم هذا الثائر في العاصمة الأرمنية (يريفان). كانت الثورة البلشفية في مطلع القرن متوهجة بشّرت بغير ما أنجزت، حتى قال شاعرنا العراقي الرائع معروف الرصافي لبني قومه:

للإنجليز مطامع ببلادكم ⁂ لا تنتهي إلا بأن تتبلشفوا

لست أدري أكان يقصد أن يحاكوا الثورة البلشفية، أم ينضووا تحت لوائها هربا من الرمضاء الإنجليزية.

تستطيع الآن استبدال الإنجليز بالأمريكان، و(أن تتبلشفوا) بـ(أن تتحرروا).

ذات يوم أراد أن يصلح أحد مصابيح الكهرباء في إحدى الغرف، وطلب مفكا، وطال انتظاره. ولما تكرر طلبه قال أحد الجلوس: "أعطوا مفكا لهذا اليتيم"، فأوشك أن يسقط على قفاه ضحكا، ولما سألناه قال إن اليتيم في اللغة الأرمنية تعني فاقد الأبوين أو أحدهما.

ليس اليتيم من انتهى أبواه ⁂ من هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى ⁂ له أما تخلت أو أبا مشغولا

- شوقي بك



الحامية

كانت لعبة للأطفال يلهون بها بعد نهاية اليوم الدراسي، وما لبث أن انضم لها الكبار من الشباب. وكانت اللعبة عبارة عن حلقة من الصغار جالسين القرفصاء، وجوههم إلى الداخل، ويدور أحد اللاعبين خارج الحلقة يربت على ظهورهم وهو يعدو حول الحلقة، فمن أمسكه منهم دون قيام، أخذ مكانه، وراح يدور حول الحلقة وهكذا. لكن الكبار استهوتهم اللعبة، فكانوا يشاركون فيها ويخرج الصغار من الحلبة إلى مقاعد المتفرجين، والتي هي عبارة عن أكوام من الطوب والزلط، واستبدلوا الربت على الظهور بالضرب الشديد. وعندما يحمى وطيسها، وتلتهب الظهور وتصبح حمراء قانية من شدة الضرب، كانت تولد الإحن والعداوات بين اللاعبين، والتي سرعان ما تُنسى بعد نهاية اللعبة، لتتكرر في اليوم التالي. كان الشباب يلعبونها في نهاية الستينيات عندما تقرر إنشاء مدرسة إعدادية في بلدتنا لتريح الأولاد من عناء وخطورة السفر وعبور النيل إلى دشنا يوميا، فكانت أكوام الرمل المعدة للمباني، والتي افترشها اللاعبون، أفضل مكان لممارسة اللعبة، خصوصا في ليالي الصيف، عندما ينشر القمر ضياءه الفضي الساحر على ساحة المدرسة وما حولها.

لم يعد لهذه الألعاب وجود الآن، ولا حتى جلسات السمر المسائية.

رأيت الفيضان



رأيت فيضان النيل مرتين قبل أن ينقطع بتأثير السد العالي؛ إذ كان الفيضان يغطي معظم أراضي البلدة، وتمتلئ كافة الترع بالمياه وتسيل على جانبيها، وتوشك أن تقتحم البيوت لولا السدود الترابية التي كان يقيمها الأهالي لتحمي بيوتهم، المبني أغلبها بالطوب اللبن، من الذوبان في مياه الفيضان.

كنا عائدين من المدرسة الابتدائية بعد نهاية يوم مدرسي، وكان طريقنا موازيا لإحدى الترع الفرعية، وكان يسير معنا مدرس الألعاب الظريف الأستاذ موسى الحمزي -رحمه الله- وبرز إلى جانبنا من الترعة فجأة ثعبان أسود طويل، تحت رأسه حلقات ملونة، علق به كثير من القش والطين من أثر الفيضان. وكانت هذه هي حال الترع عندما يأتيها

الفيضان، إذ تلفظ ما في بطونها من هوام كانت تؤويها في شقوقها الواسعة، التي ما إن تمتلئ بمياه الفيضان حتى تخرج تلك الهوام بحثا عن ملاجئ أخرى. فما كان من الأستاذ حمزة إلا أن ضمنا إليه في حنو بالغ بعيدا عن مسار الثعبان. وتصادف مرور أحد أهالي البلدة محمد أبو كلبة -رحمه الله- على جمله، فلما رأى المنظر قفز مسرعا وفي يده شعبة من الخشب كانت تستعمل للتحميل على الجمال، وعاجل الثعبان بضربة قاسية على رأسه، فقتله في الحال.

كانت المياه تسيل على الأراضي الزراعية الجافة المليئة بالشقوق الغائرة والحادة كشفرات السيوف، والتي قد تبتلع الأقدام الصغيرة عند السير عليها. لدى امتلاء تلك الشقوق بالمياه تنبعث منها رائحة أخاذة منعشة كرائحة المطر (ولا هوجو ولا جوشي)، وينتظر الأطفال وصول المياه إليها ليلعبوا فيها وتغوص أقدامهم الصغيرة في الطمي البني اللزج، غير مقدرين لأخطارها، ولا عابئين بوعيد الكبار وزجرهم عنها. بعد أن تجف الأرض من المياه، يصنع الطمي كهيئة القباب الصغيرة البنية، وتبرق في ضوء الشمس حبات الغرين اللامع، التي تتحول إلى تراب ناعم كالدقيق بمجرد لمسها.

كانت مياه الفيضان تقطع أوصال البلدة، حتى أن أحد الموسرين والذي ابتنى منزلا في منخفض من الأرض، كانت المياه توشك أن تصل إلى أعتابه، كان يصنع معدية من البراميل الفارغة مربوطة بالحبال لتصل إلى الشارع الرئيس في البلدة، وتربط في جميزة العم أمين، وكانت هذه البراميل تسمى (المرمة). بالرغم من أن أهالي البلدة يعرفون جيدا ميعاد الفيضان، ويحفظون عن ظهر قلب الشهور القبطية القديمة،

ويستخدمونها في مواعيد الزراعة والحصاد؛ إلا أن يوم دخول المياه إلى الأراضي الزراعية يكون يوم استنفار لهم لجمع حاجياتهم وبقايا محاصيلهم من الأراضي الزراعية قبل أن تدهمهم المياه وتتلفها. كانوا يتعاونون فيما بينهم، حتى من لم تكن له مصلحة مباشرة كان يمد يد المساعدة إلى الآخرين.

النورج

لمن لا يعرفها، هي عبارة عن عربة صغيرة بدائية مصنوعة من عوارض خشبية غير مشذبة، تبدو من جوانبها نتوءات الأفرع المقصوصة بغير عناية، لكن طول الاستعمال جعلها ملساء كالمرايا المصقولة. وعجلاتها عبارة عن اسطوانات حديدية رقيقة وحادة كالشفرات تسمى السهم. وقمة النورج من الحبال المجدولة بعناية، وبها مقعد السائق. كانت تستخدم لدراس القمح قبل اختراع الآلات الميكانيكية الحالية. لا تعلمون ما هو (الدراس)؟ حسنا، بعد حصاد القمح يخزّن في أجران في الحقول، وكل جرن عبارة عن كومة كبيرة من قش وسنابل القمح بعد حصاده، وترص على شكل دائرة قطرها عشرة أمتار تقريبا. وتربط النورج إلى بقرتين مدربتين على الدراس، لتقوم بجرها فوق أكوام القش. وهذا (التراك) أو المسار يسمى (الهاية)، تسير عليه النورج طوال النهار لفصل القش عن الحبوب، وهرس القش ليصبح تبنا تتغذى عليه الماشية عند انقطاع موسم العلف الأخضر. كان ذوو المهنة يركبون على متن النورج طوال الفترة، حتى يستحثون الأبقار على السير وعدم التكاسل، ويمنعونها من الخروج من الهاية. وكانوا يحْدون حداءَ أشبه بحداء الإبل عند السفر في الصحراء، وكانت كلماته غير مفهومة، على الأقل بالنسبة لي. وكان الحادي أحيانا بسبب رتابة الحركة يغط في نومه فوق النورج، وحدث أن سقط أحدهم نائما أمام النورج ومرت عليه بأسهمها الحادة، ولما كان القش كثيفا لم يتأثر صاحبنا، بل قام خجلا من نومته ينفض عن نفسه الغبار والقش. بالرغم من ذلك كنا نحب أن نركب النورج ونعتبرها متعة،

وكانوا يتمنعون حتى يستوثقوا منا ثم يسمحوا لنا بركوبها استغلالا لنا؛ لأنهم كانوا إما يستريحون في ظلال الأجران أو يقومون على شأن آخر.

كان أحد هؤلاء ظريف المجلس، يملك خيالا واسعا، ولا يفصل بين أمانيه وخيالاته. جلس يوما يحدث زميلا له تحت ظل الجرن وقت استراحة القيلولة، ويروي له بعضا من أسفاره، وهو لا يلقي لنا بالا بسبب صغر السن حينئذ. بدأ سرده بآهة عميقة طويلة قائلا: "كنت في القاهرة للعمل، وقد وفقت في عمل لدى أحد الأثرياء، وكان يملك عمارة كبيرة عالية في شارع كبير تملأه السيارات، حتى أنني عندما نظرت إلى العمارة من أسفل سقطت عمامتي ولم أصل إلى رؤية الطابق الأخير (كانت هذه صيغة المبالغة لوصف ارتفاع المكان، وتكاد تكون عامة عند العامة)، وعملت لدى هذا الرجل وأحبني جدا؛ فقد كنت بوابا للعمارة التي يملكها ويسكن في إحدى شققها، ولا يأتمن غيري على توصيل الطلبات للمنزل. وكانت لديه بنت بارعة الجمال (تحل من على حبل المشنقة) - لست أدري لماذا يرتبط وصف الجمال والشرف بالشنق أو الموت، حتى عند المتنبي الذي يقول في بيته الشهير:

"لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ⁂ حتى يراق على جوانبه الدم".

ما علينا، نعود إلى ما يسرده هذا الظريف، الذي زاد حماسه هذه اللحظة وتغيرت نبرات صوته، واختلطت عنده الأمنيات بالخيال الواسع ولم يستطع أن يفصل بينهما. وبالرغم من أن جليسه بدا شاكّا في صدقه، إلا أنه بدا سعيدا بهذه القصة، وأصبح كلما أراد صاحبنا التقاط أنفاسه يستحثه على المضيّ قدما في القصة، ثم قال إن صاحب هذه العمارة بلغ

من حبه له أنه أراد أن يزوجه من ابنته تلك، غير أنه رفض في إباء رفضا باتا هذا العرض؛ فاتسعت حدقتا صاحبه معترضا وقائلا: "لماذا!!؟"، فقال صاحبنا: "وهل تحب أن تتعالى علي بمال أبيها وعماراته!؟" انفجر صاحبه في الضحك الهيستيري قائلا: "أنا مستعد حتى ولو وضعتني في أساس العمارة وبنت علي"!



التصييف

ليس ما خطر ببالكم الكريم، من الاستلقاء على شاطئ البحر، واحتساء المشروبات المثلجة، واللعب في رمال البحر الناعمة؛ إنما التصييف كان في تلك الفترة للفتيات الفلاحات الصغيرات في السن، يتقافزن في حقول القمح خلف الحصّادين وهن يجمعن سنابل القمح التي سقطت من أيديهم في مقاطفهن الصغيرة، ومن ثم يفركنها بأيديهن ليستخلصن منها الحبوب التي قد تذهب بها العصافير، والمنافسة بينهن على أشدها. وطبعا كانت هذه العملية تتم في الربيع؛ لأن حصاد القمح فيه. وكانت الفتيات تشتري بهذه الحبوب الحلوى والعقود الملونة والأواني والأساور البلاستيكية التي كانوا يسمونها (عَداني) جمع (عِدنية) من الحلبة الذين ينشطون في هذه المواسم، وتكون بالنسبة لهم ولهن كأيام الأعياد.

أنَـا لَسْتُ أنْسَى قَرْيَتي الـسَّمْرَاءَ فِي عِيدِ الْحَصَـادْ

وَخُـطَا الكُمــاةِ الكَادِحِينَ تَرُوحُ تَضْـرِبُ فِي اتِّئَادْ

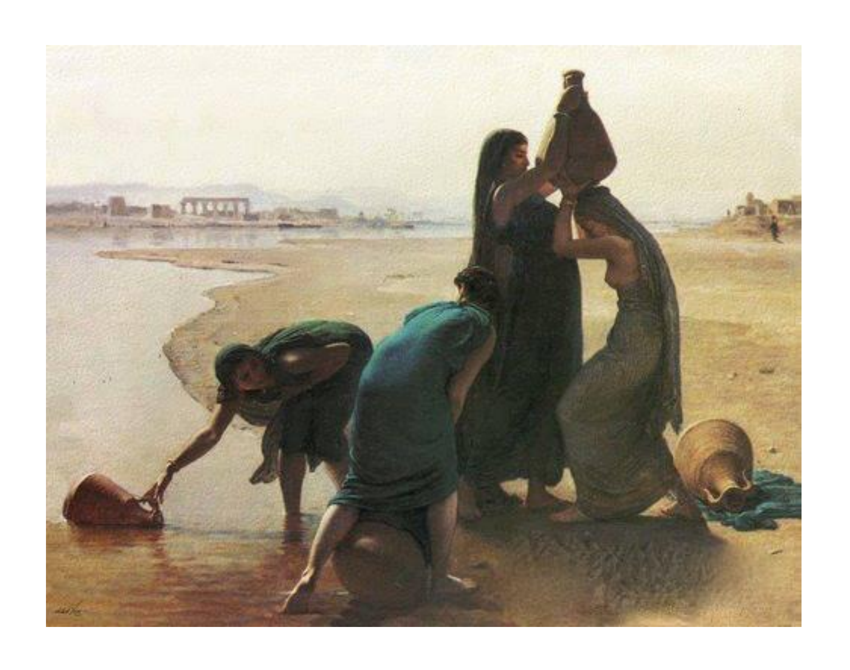
والسّنْبُلُ المُتَجَعدُ الذهَبِــيَ يَحْلُــمُ بِالــرِّقَادْ

- فوزي العنتيل

شم النسيم والبحر النائم

كانت ليالي شم النسيم يغني بها عبد الحليم حافظ أغنية طويلة يسهر لها الكبار والشباب والأطفال على حد سواء، وفي الصباح الباكر كانت الفتيات تستيقظن مبكرات لتملأن جرارهن من النيل قبل أن يصحو من سباته، حيث تصبح صفحته ساج صامت فيه خشوع الزاهدين كما يقول أبو ماضي. ويزعم الكبار حينها أن النهر في ليلة شم النسيم ينام فيصبح ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من السكر لمن يستطيع أن يملأ جرته منه إبان نومه. ثم يَمِسّنَ عائدات قصار الخطى مثقلات بجرارهن. ويدور الخبثاء من الشباب على أبواب بيوت أهل القرية بعد صلاة الفجر، فيغلقونها عليهم؛ إذ كانت مغاليق الأبواب تصنع من الخشب، بحيث تغلق من الخارج فقط، وكان أهالي القرية نادرا ما يغلقونها؛ إذ قلما يخلو بيت من أهله إلا لظرف طارئ. ويصحو الناس على جلبة وصياح من أغلق بابه عليه، يتناوبون فتح الأبواب وسط الصياح والضحكات التي تملأ سمع الصباح الباكر بمرحها وحبورها، ويتبادلون التحيات والتهنئة بالموسم. وكان يحلو للأمهات توزيع البيض المسلوق على الأطفال ليقوموا بتلوينه وتزيينه، ويتبارون في الأشكال الجميلة التي يرسمونها عليه، وتتفنن النسوة في إعداد الأطعمة الخاصة بهذا اليوم.

أنا لَسْتُ أنْـسَى قَرْيَتي وَهَـوَى الرّبيع يزورُهَـا
فَتَمُـوجُ فِيْهِ حُقُولُـهَا وَطُيـــُورُهَـا وَزهورها
وَعـلىَ صِيَاح دَجَـاجِهَـا الْـوَثَّابِ تَصْحُو دُورُهَـا
تَسْـــتَقْبلُ الْفَجْـرَ الجمِيل وقَـدْ أطَـلَّ يُنـيرُهَـا
فوزي العنتيل



الحَلَبَة

هم قوم غير معروفي المصدر، يظهرون فجأة ويختفون كما يظهرون، وهم يتزاوجون فيما بينهم إلا ما ندر. تقتضي العصبية البغيضة أحيانا إلصاق الصفات السيئة بهم، أو جرائم لم يقترفوها، وكانوا يمتهنون مهنًا خاصة بهم يأنف منها عامة الناس، مثل الحدادة وتبييض النحاس أو بيع العاديات. ونادرا ما يستقرون في بلدة، إلا أنهم إن استقروا فهم مضرب المثل في الأخلاق القويمة والتمسك بأهداب الدين. قد يكون مردّ ذلك إلى أن لهم عادات وتقاليد مختلفة عن عادات عامة القرى المصرية في العمل والزواج، وبالتالي يستنكرها الناس دون تمحيص.

الحاج محمود الضاوي

أدركته في أواخر أيامه، ومعظم الروايات التي أعرفها عنه سمعتها من معاصريه، أما ما كنت شاهدا عليه فقليل.

كان هذا الرجل من علماء الدين العاملين، والذي يصدق قوله فعله. ذو بشرة بيضاء لوحتها الشمس قليلا، طويل القامة ينحني قليلا عندما يسير، يعلوه البهاء، ولا يخلو مجلسه من طرفة أو فائدة، ويحظى باحترام الناس كافة.

رآني يوما أنا وأقراني، وكنا حينها في التعليم الابتدائي نتدارس أبياتا من الشعر المقرر علينا، فأنصت إلينا، ولما فرغنا شجّعنا على المذاكرة والاطلاع، وقال لنا بيتا من الشعر ما زلت أذكره.

شباب قُنَّعٌ لا خير فيه ⁂ وبورك في الشباب الطامحينا

كان هذا الرجل مأذون البلدة، وكان يقال له القاضي. كان متابعا جيدا للصحف خصوصا (الأهرام)، ويحتفظ بأعدادها يوما بعد يوم. عندما يفرغ من قراءة الصحيفة يعيدها كما كانت إلى حالتها الأصلية، يخيل إليك أنها لم تُقرأ، ويضعها في دولاب خاص بنفس ترتيبها في سنة صدورها؛ إذ كان يحتفظ بها دائما.

كان يقرض المحتاجين أموالا، ويصر على كتابة وصل أمانة على المقترض ويقول له: "لا يضار كاتب ولا شهيد" [٢٨٢ البقرة]. الغريب أنه بُعيد وفاته عُثر على هذه الإيصالات دون أن يتقاضاها من الناس!

كان مولعا بركوب الدواب ويكره المشي، إذا وجد من يركب حمارا طلب من الراكب أن يردفه حتى لو قَصُرَت المسافة، لدرجة أنه يوما ما كان ينتقل من بيته إلى مكتبه، والمسافة لا تزيد عن مئتي متر، لم يجد حمارا يركبه ووجد جمّالا على جمله، فأوقفه وركب معه إلى المكتب.

كان يقوم على خدمة المساجد والمدارس وعمارتها من ماله الخاص -وكان موسرا- ذات يوم أيقظ السباك من نومه بعد منتصف الليل ليصلح أحد الصنابير في ميضأة المسجد، فقال له السباك مستنكرا: "يا حاج محمود الصبح له عينين"، فأصر عليه أن يصلحه وقال له: "لقد تركت إناءَ تحت الصنبور فامتلأ إلى منتصفه حين ناديتك، فما بالك لو تركته للصباح؟" وجلس إلى جواره يمسك له بالمصباح الفتيل حتى أصلحه. كان هذا قبل دخول الكهرباء إلى البلدة في نهاية الستينيات.

كان رحمه الله يعرف فقه الأولويات ويطبقه، حتى لو أدى ذلك أن يصرف من ماله الخاص. علاقاته الاجتماعية متشعبة وممتدة في القطر المصري كله؛ إذ له في كل بلدة صديق، وفي كل طريق رفيق.

سمع الخطيب في المسجد بعد الخطبة يحث الناس على التبرع لشراء حُصر للمسجد، فانتحى به جانبا وقال له: "خلي الأمارة يصلّوا -جمع أمير بالعامية- وعندما يحتاج المسجد إلى شيء اطلبه مني أنا"؛ خشية أن يؤدي الإلحاح في الطلب من الناس ألا يرتادوا المسجد مرة أخرى. وكلمة الأمارة هذه لها قصة نسردها فيما بعد

سيارة رشدي

كانت السيارة فورد موديل ١٩٣٥ كالتي نشاهدها في الأفلام الأمريكية القديمة مثل أفلام آل كابوني، وكانت سوداء لامعة، يعتني بها دائما مالكها وسائقها رشدي، ولها سقف جلدي متين، ومقاعدها تشبه (أنتريه) راقي من الجلد الأسود الطبيعي اللامع، عندما تراها في الصباح تظن أنها خرجت من مصنعها توا. كل شيء فيها كان مميزا حتى فوانيسها التي تشبه نصف البطيخة معلقة على جانبيها.

كانت تسع من الداخل سبعة أفراد فقط؛ أربعة في الكنبة الخلفية، وثلاثة بجوار السائق، الذي كان يقودها جالسا على شفير الكنبة. كان صوتها موسيقيا بالرغم من ارتفاعه، وكانت تحمل على جانبيها أكثر من عشر أفراد، ومن الخلف ثلاثة، هذا بالإضافة إلى الجالسين على الرفارف الأمامية من الجانبين. يقودها رشدي بكل احتراف بالرغم من ضيق زاوية الرؤية لديه. كان ذا أذنين عريضتين تحاكيان رفارفها. إذا سارت محملة بالركاب تسمع لها أنينا كحشرجة المحتضر، وهي لا تتجاوز في سرعتها رجلا يعدو، بل إن الركاب كانوا ينزلون منها ويصعدون أثناء سيرها، ولا ترى منها أثرا سوى جلابيب الركاب ترفرف في الهواء من كل جانب، وعاصفة ترابية من خلفها تحجبها عن الرؤية. كان هذا قبل رصف الطريق بالأسفلت، الذي تحول بعد فترة قصيرة إلى حفر ومطبات قاسية كان الطريق الترابي أرحم منه بالركاب.

كانت الأجرة من بلدتنا حتى مكان عبور النهر أمام دشنا قرش صاغ واحد، وكانت النساء تركبن في الداخل بغض النظر عن أولوية الحضور إلى

الموقف، حتى إن استدعى الأمر نزول الراكب ليلحق بالرحلة التالية، حتى الصبية كانوا يقفون خارجا.

كانت سيارة رشدي بالإضافة إلى الحافلة الحكومية هما وسيلتا المواصلات في الستينيات ومطلع السبعينيات، إلى أن ظهرت وانتشرت السيارات الأوروبية واليابانية السريعة والخفيفة، فاختفت سيارة رشدي، ويقال أن أحد السياح الأوربيين اشتراها وشحنها إلى أحد متاحف أوروبا.



البحر الأحمر بحيرة مصرية

صديقي الصومالي، المهندس (يَسّلَم عمر) تعلم في بلده، في مدرسة أنشأها المصريون، ثم سافر إلى إيطاليا لاستكمال تعليمه والعمل فيها، وبعد فترة وجيزة قفل عائدا إلى مصر، ليعمل في دمياط مترجما للغة الإيطالية. وهو يهوى مصر، ويبالغ في مدحها. لما رأى دهشتي من وجود مدرسة مصرية في الصومال، قال: "نعم كانت مدرسة مصرية قديمة أنشئت أيام الحكم الخديوي لمصر، وهناك مدارس أخرى في إرتريا وغيرها مازالت قائمة حتى الآن، وكانت مصر تبعث إليها بالمدرسين المصريين واللوازم المدرسية أيضا أيام الحكم الخديوي.

دعاني ذلك إلى البحث في كتب التاريخ الحديث. وجدت أنه في أيام حكم الخديوي إسماعيل كانت البحرية المصرية تزوِّد الفنارات المصرية بالمؤن على ساحل البحر الأحمر حتى الصومال، وكان كما هو معلوم أن السودان بكامله حتى الحدود الأثيوبية كان متحدا ضمن المملكة المصرية، وقد وقفت بريطانيا ضد الخديوي إسماعيل حتى لا يتوسع جنوبا فيما عُرِف بـ(حرب الحبشة)، والتي استعان فيها الخديوي إسماعيل بمرتزقة أمريكان حتى لا تصل أسراره العسكرية إلى الأوربيين إذا استعان بمرتزقة منهم.

وقد كان من أهم ما يؤرق محمد علي تأمين منابع النيل تحت الحكم المصري من أقصى منابعه حتى مصبه، ومن ثم التوجه شرقا، وقد كان؛ حتى أوشك أن يسيطر على معقل الدولة العثمانية لولا تدخل بريطانيا

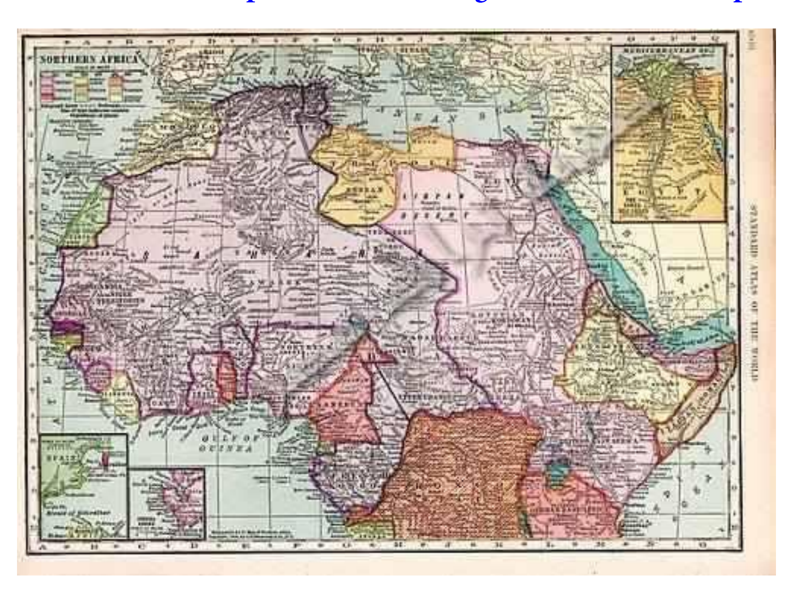
والدول الأوروبية، والباقي معروف، من فرض الشروط عليه وانسحابه المؤلم من الشام.

أتدرون أن محمد على هو من أطلق اسم الخرطوم على عاصمة السودان، وقد كانت فيما سبق قرية صغيرة على النيل؟

راجع كتاب إلياس الأيوبي (تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا) مكتبة مدبولي

و كتاب Muslim Egypt and Christian Abyssinia على

http://content.wdl.org/2534/service/2534.pdf



بائع الصحف



لما كنا في مرحلة الصبا، كان مصروفنا لا يكفي للقيام بأعبائنا القرائية وسدِّ النَّهم إلى المطالعة -إن جاز التعبير. ابتكرنا طريقة للقراءة، وأعاننا عليها بائع الصحف، وهي أننا كنا نستعير من بائع الصحف الكتاب أو المجلة التي نعجز عن شرائها بطريقة أخرى، وهي أن ندفع له قيمتها نقدا، على أن نرد إليه الكتاب أو المجلة قبل ميعاد المرتجع، وكان في العادة أسبوعا، ويخصم لنفسه خمسة مليمات عن كل كتاب أو مجلة، شرط ألا يكون مقطوعا أو مخدوشا أو مشوها بأية حال؛ واذا حدث أي تشويه في الكتاب، فقد كان يصادر المبلغ لديه، لكنه في أغلب الأحيان كان يتغاضى عن ذلك.

بهذه الطريقة قرأنا كثيرا من المجلات والكتب. المعضلة التي كانت تواجهنا هي الكتب المغلفة، والتي لم نستطع إليها سبيلا؛ لأن كل محاولاتنا لإعادة الغلاف كما هو كانت تبوء بالمصادرة وخسارة رأس المال.

مكتبة الثقافة الجماهيرية

كنت أنفق جل وقتي فيها، وكانت المكتبة بالقرب من مبنى المحافظة في قنا في قصر قديم لأحد الباشاوات، والذي تمت مصادرته للدولة. لها بوابة حديدية عالية تطل على الشارع مباشرة، تؤدي إلى حديقة أمامية صغيرة مهملة، نبتت فيها الحشائش بغير نظام، ثم من بعدها تصعد إلى المدخل الأمامي عدة درجات من الرخام الأبيض اللامع، والذي تآكلت درجاته من وسطها، فأصبحت كالأوتار المشدودة، ينبغي لمن يصعده أن يحذر الانزلاق إلى الخارج، كأنما هو لعبة في الملاهي. من بعده باب خشبي ضخم يصدر صوتا كفحيح الأفعى عند تحريك مصراعيه، يقودك هذا إلى بهو فسيح، عند الدخول إليه تشعر برائحة غريبة في هذا المكان تشدك إليه كلما حاولت الانصراف -بالطبع ليست رائحة المعرفة- بل أكداس الكتب والخشب المصقول اللامع لأرفف المكتبة العتيقة، لكنها كانت رائحة توحي بالرهبة. ومن ثم تواجهك صفوف الكتب المرتبة بعناية حسب الموضوعات، والتي تمتعت كثيرا بمطالعتها، وكنت أمنّي النفس أنني سوف أنتهي من قراءتها كلها كلما دلفت إليها.

دأبت على زيارة هذه المكتبة، حتى أن أمين المكتبة، الذي كان يجلس إلى مكتب خشبي أثري عتيق الطراز إلى جانب الباب، أعارني منها كتبا دون المرور بإجراءات الاستعارة المملة، وكنت عند حسن ظنه؛ ليس حبا في الالتزام ولكن سعيا لاستبدال الكتاب بآخر.

عصر أحد الأيام، يممت شطرها، فوجدت سلسلة حديدية سوداء ضخمة تلتف حول قضبان الباب الخارجي كأنها جانّ أو ثعبان، وليس من أحد

في الداخل، وإنما بضع أكوام من الحجارة والتراب، وبقايا لجدران محطمة تملأ الباحة الأمامية.

بدا بعدها أن المبنى كان آيلا للسقوط منذ فترة ولم يلاحظ ذلك أحد، وانهار صباح ذلك اليوم قبل وصول الموظفين بسويعات.

لم أمر بهذا الشارع فيما بعد إلا امتلأت نفسي حسرات على تلك المكتبة، والتي لم تقم لها قائمة حتى اللحظة.

***

المكتبات

كلما دخلت مكتبة في صباي الباكر، كنت أخرج منها وفي نفسي لوعة وفي بطني ألما، في الحالتين إذا اشتريت كتبا أو لم أشتر.

إذا اشتريت حزنت على ما دفعته من مال عانيت في توفيره وأنفقته لقاء الكتب، وإذا لم أشتر تملكني الأسى على الكتب التي حال ضيق ذات اليد عن شرائها.

سور الأزبكية

كلما مررت بسور الازبكية، غلبني الحنين إلى تلك الأيام التي اشتريت فيها كثيرا من كتبي من المكتبات التي كانت تحتل السور، وتفرقت أيدي سبأ بعد بناء كوبري الأزهر وما تلاه من تغييرات في بنية المكان، وأصبح السور مرتعا لباعة العاديات (والأمشاط والفلايات).

اشتريت من هذا السور كتاب (فلسفة الثورة) لعبد الناصر بخمسة مليمات، وجزء من كتاب الأغاني بجنيه واحد. كان هذا في سبعينات القرن الماضي. وكان هذا السور ملجأً لراغبي المعرفة والقراءة بأسعاره الزهيدة، وتنوع الكتب التي تزين جانبيه. كنت أعتبر الإلمام به نزهة وليس فقط مجرد شراء الكتب. قد يخدعك مظهر الباعة على أنهم كباعة (الروبابكيا)، لكنك تفاجأ بمعرفتهم الواسعة بما يبيعون، وتقديرهم لسعر الكتاب الذي تتصفحه، مع قدرتهم على تفرس الزبون المشتري من المتفرج.

اقتنيت منه كثيرا من الكتب القديمة، والتي مازال محتواها جديدا بالرغم من أنها تآكلت وحالت ألوانها.

لهذا كان لهذا السور فضل كبير عليّ من بين أشياء كثيرة وأشخاص كُثُر.

إنما تقاس عراقة الأمم وتقدمها الحضاري بمقدار ما فيها من مكتبات عامة وخاصة.

***

عندما اقرأ كتابا جيدا تتقرى أصابعي صفحاته المتبقية أثناء القراءة خشية انتهائه.

الكتب المدرسية

كنا في صبانا عندما يذكر أحدنا معلومة غريبة قد تثير الشك لدى السامعين، يحتج على سامعيه أنها مذكورة في الكتاب -أقصد الكتاب المدرسي- فتخرس الألسنة؛ إذ كان الكتاب المطبوع حجة على القارئ والسامع والقاصي والداني والعالم والجاهل والرفيع والوضيع. الآن تجد من الأخطاء الواردة في الكتب التي تطبعها الوزارة وتوزعها على الطلاب من الأخطاء مالا تجده على ألسنة وُعّاظ الأوقاف المعينين بالواسطة.

وإنك لتنظر إلى أسماء مؤلفي الكتب ومراجعيها، تجدهم من القوم الذين هم هم ملء الصحف والمجلات والقنوات والفضائيات، وملء ما شئت من شيء بعد، يتحدثون في السياسة والدين والأدب الرصين كأنهم (سحبان وائل)، أو على الأقل (قس بن ساعدة)، بعضهم عضو -لا تستغرب- في مجمع اللغة.

عندما وجدت بعضا من هذه الأخطاء في كتاب الأدب المقرر على إحدى الصفوف الثانوية، اصطحبت الكتاب ومعي المصادر الموثوقة من أمهات الكتب الأدبية، وتوجهت إلى المدرسة، فقابلني مدرس للغة العربية الأستاذ (أحمد حويل)، والذي ينتمي إلى جيل العقاد أدبا ومعرفة، وإلى الجيل الحاضر سنا، والذي أراني أخطاء أخرى لم أنتبه لها، وذكر لي أنه يشرح المنهج الصحيح للأولاد، لكنه يأمرهم أن يجيبوا في الامتحان طبقا لكتاب الوزارة! ضع ما شئت من علامات التعجب.

يذكر الشاعر غازي القصيبي -رحمه الله- أنه سأل زميلا له بعد حصولهما على الدكتوراه من بريطانيا: "ما هو أكثر شيء أسعدك بعد حصولك على الدكتوراه؟" فأجابه: "أنني استرحت من القراءة"!!!

المعرفة

القراءة عندنا لبعض الناس هواية، ولجزء من هذا البعض غريزة، وهذا لا يبني أمة، ولا يصنع نهضة، إن لم تكن القراءة سلوك وأسلوب حياة للكافة منذ نعومة أظفارهم؛ وأعني بها قراءة الكتب وليس الصحف ولا تصفح الشبكة.

ترى القوم في الغرب إذا قام أحدهم خطيبا -حتى لو كان من ذوي المهن الدنيا- قلما يخطئ في حرف أو يلحن في قول وإذا فعل -وهذا يحدث نادرا-فإن فعله مستهجن حتى من أطفالهم. والقوم لدينا، تجد أحدهم قد تبوأ منصبا ترنو له الأبصار وتهفو له الأفئدة، فإذا تكلم في محفل قلت "ليته صمت!"؛ لأنه لا يروي صاديا ولا يشفي غلة، ناهيك عن الأخطاء اللغوية المخجلة.

وإذا كانت اللغة والمعرفة لازمتين لكل الناس، فهي في حق الخطباء وأهل القانون ألزم؛ فإن لكل صانع عُدة يملك بها ناصية مهنته التي منها رزقه وبها يقيم أوده، فالخطباء -إلا أقلهم- لدينا كالصنّاع الذين يغدون إلى أعمالهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الاستعداد، (كالطرزان) لا يحمل عدة ولا عتادا. (وما أخذت كلمة الاستعداد إلا من توفير العدة)!

أما أهل القانون، فلا يعتدل ميزان العدل عندهم إلا بضبط ميزان اللغة، وقد كان حتى فترة وجيزة كثير ممن يتعاطون الأدب من أهل القانون، بل إن منهم من كان يكتب ديباجة حكم تصلح لتدريس البلاغة دون أن يخل بحجة ولا تنقصه الأسانيد، من ذلكم عبد العزيز باشا فهمي الذي أعطى محكمة النقض اسمها. أخذه من قوله تعالى "كالتي نقضت غزلها

من بعد قوة أنكاثا" [النحل ٩٢] صدق الله العظيم. أو من قول قيس بن الملوح:

"لقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل ⁂ بي النقض والإبرام حتى علانيا"

على كلٍّ القرآن سابق.

وهو الذي ابتكر كلمة (حيثيات الحكم).

وإبراهيم باشا الهلباوي، الذي كانت مرافعاته آية من آيات البلاغة - بغض النظر عن موقفه من قضية دنشواي- وكان أشهر محام في حينه. وقد رويت فيه الطرفة الشهيرة التي مفادها أن أحد العامة اشترى لحما من الجزار ثم أراد أن يأخذ اللسان على البيعة، فرفض الجزار قائلا: "اللسان بجنيه"، فرد عليه الرجل: "ليـــــه!؟ هوه لسان الهلباوي!؟"

والقراءة الآن لدى الأطفال مكروهة كراهية التحريم؛ لأن المناهج كأدوات التعذيب، فما إن تبدأ الإجازة حتى ينفلت الطلاب من رق المذاكرة إلى سعة اللهو، وذلك يقع عبئه على الأبوين أولا والمدرس ثانيا؛ لو أن الأبوين حببا القراءة إليهم في سن صغيرة وأغروهم بها، لوجدوا آذانا صاغية إلى مدرسيهم؛ أما المدرسون، فأصبح التدريس لديهم مهمة أثقل من حمل الصخور، أنا أتحدث عن الجيدين منهم، أما أصحاب الدروس الخصوصية، فليس همهم إلا في شحن دماغ الطالب بأجوبة الامتحانات النموذجية، وتفريغ جيوب الأهل من النقدية. فيخرج الطالب بعد التخرج لا يحمد الله على شيء كحمده على ترك الكتاب.

تعريب العلوم

جمعتني مناسبة بأحد الأمريكان، وجرى الحديث في أمور شتى. من بين ما تحدثنا فيه كان عن اللغة والثقافة العامة والأعمال. ذكر لي أنه يعكف على تعلم اللغة الصينية لارتباط أعماله بالصين في الوقت الراهن، فلما أبديت تعجبي لأن لغات القوم في الصين متعددة، وأعداد حروفها تبدو لانهائية، قال لي إنه يتعلم أكثر لغات الصين شيوعا لديهم، وأنها ليست بالصعوبة التي تبدو عليها. ولما كان لهذا الرجل أعمالا مرتبطة بالعالم العربي، قفز إلى ذهني السؤال البديهي "لماذا لم تتعلم اللغة العربية بالرغم من بقائك فترة طويلة بين ظهرانيهم؟" فقال: "تعرف أن لغة المال والأعمال في العالم تقريبا هي الإنجليزية، وقد كفاني من أتعامل معهم من العرب مئونة تعلم لغتهم؛ إذ لا بأس بهم في اللغة الإنجليزية. الشيء الثاني ولا أقصد الإهانة -هذا قوله- ما الذي لدى العرب من العلوم لكي أسعى إليه بتعلم لغتهم؟ إن معظم العلوم بلغات أخرى غير العربية". انتهى حديثه.

عندما قام محمد علي بنهضته في مصر، كان من أهم ميزاتها نقل العلوم الحديثة إلى العربية، وكان كلوت بك ناظر مدرسة الطب يشرح بلغته، ويقف إلى جواره مترجم فوري. صحيح أن الترجمة في عصره لم يكن عودها قد اشتد، ومع ذلك فقد خرج من هذه المدارس من يقود النهضة التعليمية، وباللغة العربية التي كان محمد علي باشا الألباني الأصل متعصبا لها، ومتمسكا بها هو وابنه إبراهيم باشا (صاحب مسجد القائد

المشهور في الإسكندرية)، حتى إن إبراهيم باشا سئل: "متى تتوقف فتوحاتك؟" قال: "عندما أصل إلى نهاية البلاد التي تتحدث العربية".

ثم حدثت بعدها الانتكاسة الكبرى في التعليم أيام الخديوي عباس حلمي الأول، ومحمد سعيد باشا، الذي قال: "أمة جاهلة أسلس قيادا من أمة متعلمة".

بعد ذلك بفترة طويلة، قامت صيحات كثيرة تنادي بتعريب العلوم، ومنها الطب، وكان لها مؤيدون ومعارضون، وكلا له حجته. وقد تبنت جامعة الدول العربية قرارا بتعريب العلوم، لم تلتزم به سوى سوريا، التي أصبح الطب يدرس فيها بالعربية.

حجة الرافضين للعربية أننا مازلنا متلقين للعلوم الحديثة، ومعظمها من الغرب، وأننا لكي نساير تلك العلوم في حينها يجب أن يتقن دارسينا لغات القوم، بالإضافة إلى الأبحاث التي يجب أن تنشر بلغات الدوريات المتخصصة، وأغلبها بالإنجليزية، وهي حجة لها وجاهتها.

إذن عودٌ على بدء، لماذا لا يتم الاهتمام أولا بالمراكز البحثية داخل الجامعات وخارجها لتوفير نهضة علمية أولا قبل الحديث عن التعريب!؟ -إن العرب لم يغزوا العالم بلغتهم، بل بعلومهم التي أتقنوها وبرعوا فيها، وبالتالي انتشرت اللغة وانتشر الإسلام- وعند وصول تلك المراكز إلى مستويات جيدة من البحث العلمي، يمكن ساعتها فرض اللغة العربية على الأبحاث التي تصدر من هذه المراكز، وسوف تجد من العالم من يسعى لترجمتها أو لتعلم لغتها من باب أولى، وتكون تلك هي اللبنة

الأولى في تعريب كافة العلوم في العالم العربي. وتعود الريادة لتلك المراكز البحثية ليس فقط في العالم العربي بل العالم أجمع.

كان من الطُرَف التي ساقها معارضو تعريب العلوم، اختلاف اللهجات في العالم العربي، ومنها أن كلمة (كشف) نظيرتها في اللهجة العراقية (قشع)، وهي كلمة صحيحة لغويا، من (انقشع السحاب) أي انكشف، فقال ذلك الطبيب "إذن أكتب على عيادتي قشع عادي بكذا وقشع مستعجل بكذا!". وهذا مردود عليه؛ إذ أن لهجة قريش هي اللهجة التي سيطرت على لغة الثقافة والفقه والآداب، في العصر الجاهلي وكافة العصور التالية لظهور الإسلام، وحتى الآن، بالرغم من اختلاف لهجات القبائل العربية.

الشيخ محمد الغزالي

سابق لعصره ومعاصريه، منفتح الذهن على كافة الحضارات، لم ينبهر بالحضارات الأخرى ليقينه أن ما لديه أفضل. كان يترفع عن توافه الأمور. سُئِل ذات مرة عن الإنسان مُسيّر هو أم مُخيّر؟ فلما بدأ الحديث ظننتُ أنه لم يستمع جيدا إلى السؤال، لكنه ما لبث أن رد ردا بليغا.

قال للسائل: "لم يكن يهتم بالنظرية الشيوعية خارج بلادها أحدا حتى قامت الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧، وقام على أثرها الاتحاد السوفيتي، فانتشرت الأفكار الشيوعية في العالم كله، ووجدت لها أنصارا وأحزابا بالرغم من باطلها. يا سيدي لا تشغلوا أنفسكم بترف فكري الآن، ولكن اتجهوا إلى العلوم الحديثة، واتجهوا إلى الاقتصاد، ولمّا تسودوا الدنيا لا عليكم إن تسامرتم بمثل هذه القضايا التي قتلها الناس بحثا قديما وحديثا.

سُئِل ذات السؤال في محاضرة أخرى فقال ساخرا: "هو مُخيّر في الغرب ومُسيّر في الشرق".

***

ليس العاقل من عرف الخير من الشر، وإنما من عرف خير الشرين

عمر بن الخطاب

السياسة والأدب في العراق

من ضمن الحكايات التي رواها لي صديقي الشاعر العراقي، معركة أدبية دارت رحاها بين الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري والشاعر إبراهيم الخال.

كان الجواهري على علاقة طيبة بالقصر، ويوم حفلة تتويج فيصل الثاني ملكا على العراق بعد بلوغه سن الرشد، مدحه الجواهري بقصيدته التي يقول في مطلعها:

تِهْ يا ربيعُ بزهرِك العطرِ النّدي ⁂ وبضوئك الزاهي ربيع المولدِ
يا نبتةَ الوادي ونغمةَ عطره ⁂ يا نبعه الثجّاج في اليوم الصدي
يا أيها الملك الأغرّ تحيةً ⁂ من شاعر باللطف منك مُؤَيّدِ

حتى ثار عليه الشاعر إبراهيم الخال ثورة عارمة؛ لأن الملك كان معروفا بميله إلى الإنجليز، فقال يهجو الجواهري من قصيدة مطلعها:

صَهْ يا رقيع فمن شفيعُك في غدِ ⁂ فلقد خسئتَ وبانَ معدنك الرديّ

الشاهد في الأمر أنه بعد فترة أقر الجواهري بخطئه في هذا الموقف، واعتذر عن القصيدة، بل وحذفها من ديوانه. ولكن هيهات! فلقد دخلت التاريخ إلى جوار غيرها من سقطات الكبار.

***

القيادة لا تعني الرئاسة

الكلمة السابقة للأستاذ هيكل، وهو أبرع من يصوغ العبارات الصحفية في قالب أدبي.

قدرا، وُضعت مصر في طريق قيادة وريادة العالم العربي وإفريقيا؛ فكلما قامت في مصر ثورة شعبية أو أدبية، وجدت أصداءها في تلك المنطقة من العالم، وتنداح حتى تترك أثرها فيما بعد على العالم كله. وأزعم وأنا مرتاح البال أنه لو عطست مصر لشَمّتَها العرب أجمعين، والعكس صحيح.

بعد قيام ثورة ١٩١٩ في مصر، قامت ثورة العشرين في العراق، وفي ثورة العشرين كان الإنجليز يستخدمون الطائرات في العدوان على العراقيين، وكان بدو العراق حينها مازالوا لا يعرفون سوى الابل في تنقلهم، ولما كانوا يشاهدون الطائرة لأول مرة، فقد زلزلت كثيرا من قناعاتهم، وقال شاعرهم:

"فرحان خالج له بعيره

وابن آدم خالج طياره"

ولما كانت تسقط القنابل عليهم، كانوا يقارنون بينها وبين الأحجار التي كانوا يقذفون بها الإنجليز بقولهم:

"الطوبة لُو مقياري"

والطوبة هي القنبلة أو الكرة، والمقيار هو المقلاع الذي يُستخدم لقذف الأحجار. إذ يستنكر شاعرهم كيف يقاومون الإنجليز بإمكانياتهم

المحدودة ضد الآلة الحربية الإنجليزية التي استخدمت ترسانتها الحديثة في ذلك العهد لإخماد الثورات، وقد فعلوا.

ومن ثم عُقِد مؤتمر القاهرة، الذي حضره وزير المستعمرات البريطاني (ونستون تشرشل) حينها، وناقش موضوع الثورات العربية كثورة ١٩١٩ في مصر وثورة العشرين في العراق، وانتفاضة اليمنيين والسوريين والفلسطينيين، وتقرر منح هذه الدول استقلالا ذاتيا محدودا، تنفيذا لمعاهدة (سايكس بيكو) بتجزئة الولايات العثمانية، ومنحها استقلالا شكليا، وربط تلك الدول بمعاهدات تسهل من خلالها هيمنة بريطانيا وفرنسا عليها.

ولما مات سعد زغلول، تأثرت البورصة المصرية بوفاته هبوطا. ولما مات عبد المحسن السعدون السياسي البارز في بغداد، قال معروف الرصافي يرثيه ويخاطب المصريين:

لئن كان قد أرخَصَ الأموال سعدكمو ⁂ فإن سعدوننا قد أرخص العمرا

هيكل وتقدير الذات

بعد أن استأذن الأستاذ هيكل عن استمراره في الكتابة، عاد من نافذة أخرى وهي الظهور التليفزيوني، وكتاب أخير وليس آخرا هو (مبارك وزمانه من المنصة إلى الميدان)، وهو لا يترك حديثا الآن إلا ونوّه فيه بنفسه مع ذكر التفاصيل الدقيقة عن اللقاءات التي كان يدعى إليها أو يكون حاضرا فيها، وكيفية ملاقاة الزعماء له وتوقيرهم إياه، مما يوغر عليه الصدور حتى الآن.

ذلك لأن بريقه لم يخفت بعد، ومازال في قلمه وفكره بقية تأبى إلا الظهور. وهذا الرجل كنز استراتيجي لمصر إذا كان غيره كنزا لآخرين، إذا فقط استبعدنا ما يثيره من دخان طاغ محوّج برائحة البخور حول علاقته بعبد الناصر؛ ذلك لأنني لم أقرأ له نقدا لمرحلة عبد الناصر قط، وهذا لا يستقيم مع طبيعة الأشياء حسب تعبيراته.

بعد أن قضى الرجل عمرا يؤدي ما يعتقد أنه خدمة لبلده ومهنته -وأظن أنه محق- لم يتبق للرجل إلا هذه الذكريات بعد سنوات من نكران الذات، ينبغي ألا نقف عندها طويلا بقدر ما نقف تجاه ما يثير من أفكار وتحليلات، تقترب كثيرا من الحقائق.

كان بعض الصحفيين تتملكهم الغيرة المهنية من علاقة هيكل بعبد الناصر وغيره من الزعماء، دون أن يعلموا الأسباب والدواعي إلى ذلك. يقول هيكل" "إنني لم أك أسعى إلى معرفة الأخبار من عبد الناصر، بقدر ماكنت أجمعها له".

وكُتُب هيكل تتم صياغتها بطريقة فريدة، تجعل من يدمن قراءتها كالواقع تحت تأثير منوم مغناطيسي بارع، وكأنه يقيد القارئ إلى الكتاب بسلاسل قوية غير مرئية، لا يستطيع لها فكاكا إلا بعد الانتهاء من الكتاب، ويتركه على أمل لقاء جديد في كتب أخرى. لا يفقد أبدا الأستاذ هيكل صياغته الأدبية ولا تلاحق الأحداث والترابط بينها، سواء في المقال أو الكتاب، مع التركيز على التفاصيل التي يستخرج منها دلائل كثيرا ما يغض الآخرين الطرف عنها أو لا يرونها بدءا. واعتقادي أن الأستاذ هيكل غاص في علم النفس طولا وعرضا، كما تجده عالما بأسرار اللغة العربية، عارفا بجمالياتها، ملما بأشعار الحكمة فيها على اختلاف العصور. أظنني أطلت في وصفه ومع ذلك أعتقد أنني ما أوفيته حقه. أما عن الاحتراف في العمل الصحفي، فقد شهد له أهل مهنته بذلك ولا حاجة للمزيد. أما عن تبنيه لفكر ما بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه، فهو لا ينكره، بل هو ثابت على ما يعتقد، بخلاف كثيرين يغيرون اعتقادهم كما يغيرون ربطات العنق. وهو يعلم أن فكره وما يعتقده ليس منزها كالتنزيل، وإنما يبحث عن أوجه التلاقي بين الأفكار وليس التنافر. باستطاعتنا أن نختلف معه كيف شئنا وأنى شئنا؛ إذ يعتريه ما يعتري النفس البشرية من قصور، لكننا لا نستطيع أبدا أن نختلف على وطنيته وحسه القومي ونبل مقاصده.

أنت حيث تضع نفسك

سُئِل غاندي: "ما الذي دفعك إلى تحمل الصعاب والاعتقال والتشرد وهذه المشاق التي مررت بها؟؟" فرد بكلمة واحدة: "الطموح".

***

إخوان الأمس وإخوان اليوم

هل يمكن المقارنة بين إخوان الأمس وإخوان اليوم؟ أعتقد أنها لن تك في صالح اليوم؛ فمن أين لهم بقامة كالتلمساني، أو علم كالغزالي، أو حنكة كمحمد حامد أبو النصر، بالرغم من الظروف القاسية التي مر بها الرعيل الأول!؟ مجرد تساؤل!

الغزل قديما وحديثا

تظل اللغة العربية شاعرة ومعبرة عن أدق المشاعر والأحاسيس، ومفهومة مهما طالت بها الأزمنة. وإننا لنفهم قول النابغة الذبياني منذ أكثر من خمسة عشر قرنا، كما نفهم شعر فاروق جويدة في عصرنا الحديث. وإننا لنقرأ مثلا قول المتنبي الدارج على كافة الألسنة الآن

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ⁂ وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا

فنظن أنه قيل بالأمس، وقد مرت عليه عشرة قرون ونيف.

تظل تلك اللغة مفهومة وواضحة، اللهم إلا من بعض الكلمات في أدب الجاهليين، التي قد يُحتاج فيها إلى القاموس، على خلاف اللغات الأخرى؛ فعند الإنجليز مثلا، تجد الجيل الحاضر منهم يجد صعوبة جمة في فهم شعر شكسبير مثلا.

كما أن التعابير التي استخدمت في العصور المتقدمة في العربية، مازال لها بريقها وألقها.

يستثنى من ذلك معاني الغزل التي تجددت بإيقاع سريع متلاحق، وابتكر الشعراء الكثير منها ولا يزالون؛ حيث أنه أكثر أغراض الشعر طروقا من الشعراء؛ إذ كما يقال أن القافية النونية هي مطية الشعراء، فكذلك الغزل، فتجد جل الشعراء قد ترك منه أثرا، حتى من اشتهر منهم بالحكمة الخالصة كالمتنبي، لم يستطع تجاهله؛ بل إن بعض الشعراء اقتصر شعره كله على الغزل، مثل (جميل بن معمر)، و(عمر بن أبي ربيعة)، الذي قال له هشام بن عبد الملك: "لماذا لا تمدحنا كسائر الشعراء!؟" فقال: "معذرة يا أمير المؤمنين فأنا لا أمدح الرجال".

ويدلك على أن شعر الغزل مسه التغير السريع في الصور والأخيلة أكثر من أغراض الشعر الأخرى، بل تجاوزها إلى مرحلة التناقض، عندما تقرأ مثلا قول البحتري في مطلع قصيدة له يمدح بها (حمد الكاتب) يستهلها بالغزل فيقول:

حُلّي سعاد غُروضَ العيس أو سيري*** وانجدي في التماس الحظ، أو (غوري)
كل الذي نتـــرجّاه ونأمَـــلَه *** مضَـــمّن في ضــــــرورات المقادير
فلِمَ أكلف نفسي ما أكلِّفها *** من اتصالاتِ تغليسي وتهجيري

فإن هذا المطلع على وجاهته وحسنه في عصره، لا يساوي في عصرنا هذا قلامة ظفر، بل هو بمقاييس عصرنا هجاءَ مقذعا؛ فلو أن شاعرا معاصرا أنشدها لزوجته مثلا، لقذفته بفنجال القهوة إن تعذرت عليها (حلة الكشري).

الأقوال الأتية بعضها لي وبعضها لآخرين:

- أتمتع بفضائل كثيرة، لكن التواضع ليس من بينها.
- من أشد التعبيرات التي أطلقت على هول يوم القيامة إلقاءَ للرعب في النفوس، أن الناس يودّوا أن يصرفوا فيه ولو إلى النار. ويغفر الله للناس مغفرة عظيمة حتى يظن فيها إبليس أنه سوف يغفر له.
- تُخُومْ الحكمة محاطة بسياج الحماقة.
- القناعة قبر الطموح.
- ظلال الخوف يمزقها حسام الأمل.
- قد يكون من الحسن أن تقول الكلمة الصحيحة في الوقت المناسب، لكن الأصعب أن تسكت عن قول الكلمة السيئة برغم إغراء الوقت المناسب والشخص المناسب.
- إخفاقك في الاستعداد يعني استعدادك للإخفاق.
- من حسن الخلق أن تفعل الخير لخصمك بالرغم من قدرتك على إيذائه، وهو لا ينفك يوفّر لك الذرائع لتؤذيه.
- نكون؟ بلى نكون. هذا هو السؤال.
- العلم بدون أخلاق يجعل من الشخص الأريب شيطانا ماهرا

***

في صبانا، كان في قريتنا رجل حكيم اسمه (فاوي أبو عميرة)، مررت به في صباي وهو يزرع فسيلة نخل أمام بيته، فقال له أحد العابرين من جيله، وكان قد أسن وبدت على محياه آثار السنين: "بتزرع لمين يا فاوي!؟ انت عجّزت!"، فقال: "لأولاد علي (ابنه) ياكلوا منه"، وقد كان. الحكمة ليست حكرا على أحد!!

الأمَارة

بعضٌ من أهل الصعيد ما زالوا يوقرون قيم الأعراف والتقاليد التي توارثوها، ويقدمونها على ثوابت الدين. من ذلكم مثلا حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي يقول فيه: "إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" [رواه البخاري والحاكم]، فتجدهم يتجاوزون هذا الحديث عندما تكون الأمور على المحك؛ فهم يرون العار كل العار في إحصان بناتهم خارج القبيلة، على عكس وصايا الرسول الكريم الذي قال في أهم من ذلك وأعلى: "السمع والطاعة ولو تأمّر عليكم عبد حبشي" [رواه أبو داود والترمذي]، وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وكثيرة هي الأحاديث والآيات التي تدل على أن التفاضل يكون في العمل الصالح والتقوى، وأن الكفاءة لها شروط أخرى غير ما يتوارثه القوم.

تجد كثيرا من مثقفيهم وأهل الرأي فيهم من لا يقبل بهذه المواريث، بل ويبغضها، لكنه مع شديد الأسف لا يستطيع تجاوزها حتى ولو على نفسه وأهل بيته. بالرغم من أنها قد تؤدي إلى مفاسد عظيمة وشرور كبيرة.

وإن لمن أعظم الأمور التي توطد دعائم الأمن وتزيد الألفة والمودة بين القبائل والناس، هي روابط المصاهرة، وقد كان من ضمن الفوائد العظيمة لتعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم التقريب بين القبائل في شبه الجزيرة، وإزالة الإحن وتصفية النفوس، وقد فعلها بعضا من الملوك في العصر الحديث لأسباب سياسية، وقد آتت أكلها؛ إذ جعلت

من كل قبيلة أمراء ينتمون إلى العائلة الحاكمة، وقد قلل هذا من التذمر ووأد القلاقل السياسية في مهدها. بل وجعل لهم في بيت المُلك صهرا ورحما.

نجت السنابسة بحمد الله من هذا الأمر، وتغلبت عليه باكرا، بالرغم من تعصبهم لأصولهم وصفاتهم التي يبالغون في وصف أنفسهم بها، من النجدة والكرم والشجاعة كعادة العرب الأولين، حتى وإن كان لهم منها نصيب وافر فإن للقبائل الأخرى أنصبة، ولم يجعل الله المفاضلة بين خلقه إلا بالتقوى. أما عن ادعائهم الإمارة، فيزعمون أنه كان لهم شأن في حكم البلاد أيام حكم صلاح الدين، وكانوا من قادة الثورة ضد المماليك، يدعمهم في ذلك أن بعضا من الشعراء يرجع في أصولهم إليهم، مثل صفي الدين الحلي، والشاعر الجاهلي جابر السنبسي، وغيرهم. وقد غرهم أن ورد ذكرهم في بعض كتب الأنساب والأدب، مثل (البيان والإعراب عمن بأرض مصر من الأعراب)، و(الصبح المنبي عن حيثية المتنبي). ويصدق فيهم قول الشاعر عندما انتقد بني تغلب لتكرارهم قصيدة عمرو بن كلثوم قائلا:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ⁂ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم ⁂ يا للرجال لشعر غير مسئوم!

***

البلاد العربية

عبارة عن جزر منفصلة من ناحية الفكر السياسي وتطبيقه، بل ومتقاطعة أحيانا، لكنهم يتفقون على محاولة تطويع مواطنيهم لأيديولوجياتهم السياسية المتناقضة.

أسعى في كل زيارة لأي من الدول العربية إلى الحصول على الكتب السياسية التي قد تكون ممنوعة في الدول الأخرى.

صدر في إحدى الدول العربية كتاب اسمه (تفكيك هيكل)، وأسهب المؤلف في تعقب الهنات التي ظنها في كتب هيكل، وقد احتفت به المكتبات، ومع ذلك كان توزيعه محدودا لأسباب كثيرة، لكن أهمها أن كتب هيكل نفسها التي انتقدها المؤلف غير متاحة في هذه الدولة!

وعندما أراد أحد السياسيين المخضرمين في هذه الدولة أن يكتب مذكراته، لم يجد أفضل من هيكل ليقدمها إلى القراء.

السعودية

من عاش بين ظهرانيهم ما يقارب ربع قرن ثم يقدح فيهم، فهذا ما لا خير فيه.

ومن يقضي نفس الفترة أو أقل أو أكثر ثم يمدحهم، فشهادته مجروحة.

فما السبيل في عصر أصبح الشك أهم مذاهبه، وأول طارئ على البال؟

السعودية كما يقول بعض مثقفيها (لها خصوصية).

نعم لها خصوصية، لكن ليس بتلك اللهجة التي يشوبها التعالي، وتعتريها الكبرياء، حتى تفقد الفكرة وجاهتها.

إذن ما مدى خصوصيتها بالرغم من كل الكتابات التي ملأت الأسفار مع أو ضد؟

الخصوصية في اعتقادي للأسباب التالية:

مضت فترات طويلة على هذه البلاد المترامية الأطراف، يلفها الإهمال وتعمها الفوضى، أوصالها مقطعة يعيث فيها قطاع الطرق، حتى أنه بالرغم من أهميتها للعالم الإسلامي، فلم يكن اهتمام الباب العالي بها يوازي أهميتها الروحية والدينية؛ فقد اهتمت الأستانة بتوطيد حكمها في الولايات التابعة لها، والتي تفيض عليها من خيراتها؛ أما شبه الجزيرة، فقد كانت مصدر عناء لا مورد رخاء، وبالتالي كانت على هامش الاهتمام. قصّت علي والدتي أن أباها لما حج، استغرقت رحلته ستة أشهر من وسط صعيد مصر إلى الأراضي المقدسة على ظهور الجمال، وكيف كانوا يستعدون لهذه الرحلة ويتزودون قبلها بكل ما يحتاجون من طعام

يابس مجفف ليتحمل طول الرحلة، وملابس تكفيهم الحر وتقيهم البرد لتداول الفصلين عليهم، مع أهم ما يحتاجون في رحلتهم أو قل غزوتهم وهو السلاح، من سيوف وبنادق بدائية لتحميهم من قطاع الطرق من الأعراب، منذ لحظة البدء حتى وصولهم مكة -كان هذا قبل ظهور إسرائيل والحدود بين الدول- وقد ظهر هذا في أراجيزهم المليئة بالأمل، التي يودعون بها الحجاج عند سفرهم ويستقبلونهم بها لدى عودتهم عودة المظفرين؛ فقد كانوا يقطعون حبل الرجاء فيمن سافر للحج حتى يعود.

لما ظهرت الدولة السعودية الوليدة، كان أول ما أنجزته هو بسط الأمن على هذه الربوع، وهي بلاد مترامية الأطراف متعددة القبائل مختلفة المناخ لاتساعها، وهي لم توطد فيها هذه الدعائم من قبل، فهذا أول ما يحمد لها ويمنحها الخصوصية؛ إذ أن البلدان المجاورة قد عرفت نظم الحكم منذ آلاف السنين، وتوطدت فيها عناصر الدولة المركزية.

الأمر الثاني هو إعادة تعاليم الإسلام الصحيحة في قلوب الناس وتصرفاتهم، بعد أن انتشرت الخزعبلات في الحجاز ونجد كما في كافة أقطار الإسلام. بالرغم من الشدة والقسوة في تطبيق هذه الأفكار، إلا أنها آتت أُكُلها، وتعتبر إعادة نشر لقواعد الدين الصحيح بعد الزوائد التي طالته مع كر العصور. مع ذلك لابد أن نقر أن الحماس الذي لازم بعضا من منتسبي هذه الدعوة كان متجاوزا في أحيان كثيرة، لدرجة أن تُفْقد بعض المقصرين اتزانهم، لكن بربك أي دعوة إصلاحية خلت من الغلو والتجاوز!؟ إذن فهذا لا يُفْقدها نبل المقصد ولا سلامة الغاية.

بعض من المؤرخين أو قارئي التاريخ يقولون أن الملك عبد العزيز كان صنيعة الإنجليز، وبعضهم له قدم راسخة في التوثيق، بدعوى أن الملك عبد العزيز كان من أهم أسباب سقوط دولة الخلافة وتمزق أوصالها. لكن إذا استثنينا التوثيق جانبا ونظرنا إلى الأمر من جهة أخرى، نجد أن دولة الخلافة سقطت من داخلها؛ أولا بقيام النظام العلماني الذي بدأت إرهاصاته من قبل ظهور حركة عبد العزيز، وذلك لطمع الدول الأوروبية في ميراث الرجل المريض كما كانوا يدعون، وبدأت بعض مظاهر الانفصال في نواحي الإمبراطورية التي لم تكن لتستطيع أن تمنع ذلك مع بروز قوة الدول الأوروبية ممثلة حينها بالدول الاستعمارية. صحيح أن تلك الدول لم يكن لها مطمع في شبه الجزيرة لانعدام الثروة فيها زمنئذ، لكن ما يدعو إلى التأمل أن عبد العزيز استفاد من تلك الصراعات في توحيد تلك الأراضي الشاسعة تحت راية واحدة، وإن كان قد استفاد من وجود الإنجليز على أطرافها، فقد أحسن استغلال هذا الجوار دون أن يثير مخاوفهم كما فعل محمد علي، وكان هذا من حسن التأتي للأمور، وقد أدرك جيدا حدود إمكاناته وقدراته، فلم يحمل نفسه فوق طاقتها، وقد جرت في النهر بعده مياه كثيرة.

محمد علي بك الكبير

سالت دماء كثيرة بسببه، وسال كثير من المداد في تبرير أفعاله أو الإشادة بها أو انتقادها، لكن في مجمل الأمر هو قائد عظيم وسياسي داهية. قد يكون هذا ليس بالجديد، لكن اعتقادي أن هذا الرجل في العصر الحديث لا يقل عظمة واقتدارا عن أحمس في العصر القديم، غير أنه لم يحسن استغلال قوته ولم يدرك حدودها، وأنه قد يتوسع في الفتوحات إلى الدرجة التي لا تمكنه من الحفاظ على ممتلكاته، وقد أغراه السقوط السريع للمدن والبلاد أن يكمل طريقه إلى الأستانة ويرث الدولة العثمانية، ولم يكن في مقدور أوروبا حينها أن تتحمل دولة فتية قوية تعيد الخلافة الإسلامية إلى عصورها الأولي، لتهدد وجودها كما هددتها من قبل الخلافة العثمانية، وكان ما كان.

مركز دشنا

قبل أن تكتب شهادة ميلاد مركز الوقف، وينقطع الحبل السُري بينه وبين دشنا، كان يتبع دشنا إداريا. وفي هذا المركز تجد عينة من كل مشاكل الصعيد، من ثأر ومخدرات وما إليها، شاركت الإدارة في زيادتها وليس في تقليصها؛ إذ أن معظم حوادث الثأر تكون أطرافها معلومة لأهل الحل والعقد وأهل الإدارة أيضا، فما هو إلا قليل من التلاعب في الأدلة ومحامي بارع، ليَخرج القتلة إلى الشوارع من جديد يتباهون بما فعلوا، ليغلي مرجل الموتور غضبا وحنقا، ومن ثم يعد العدة ليأخذ ثأره بنفسه، بعد أن عجزت الإدارة بسلطانها أو برغبتها عن بسط العدل والأمن، وتستمر العجلة في الدوران دون حسم.

أما بالنسبة للمخدرات، فكانت تزرع في أماكن بعينها في فترة السبعينيات، وكانت معلومة جزما للجهات الإدارية، التي كانت تقوم بمهاجمة الزراعات وإتلافها تماما، وذلك بعد جني المحصول وتوزيع الأرباح، ونشر أخبار تلك العمليات في الصحف السيارة بالبنط العريض من نوع [إتلاف زراعات الحشيش في الصعيد]، بالإضافة إلى بعض المقالات التحليلية للمتخصصين في أنواع المخدرات وتأثيرها على العقل والنفس، بالإضافة إلى كيفية زراعتها في الصفحات الداخلية ليكتمل الموضوع.

كان رجال الإدارة أيام استشراء حوادث الثأر في دشنا، يبحثون عن وساطات للانتقال إلى مراكز أخرى أكثر هدوءاَ، وبعد انتشار زراعة المخدرات به، أصبحوا يطلبون العكس.

ذات يوم في نهاية السبعينيات، كنت عائدا من قنا إلى البلدة عن طريق دشنا بالسكة الحديد، وركبت قطارا متهالكا يقوم من قنا الساعة الحادية والنصف ظهرا، ليصل إلى دشنا في حدود الثانية والنصف، هذا إن كان حسن السير والسلوك، مرورا بكافة المحطات التي كان يقف فيها ما شاء الله له أن يقف. وحدث أن توقف في محطة السمطا، ولكن ليس في الرصيف المعتاد، بل توقف في رصيف آخر يقال له رصيف التخزين، وما هي إلا برهة حتى سمعنا صوت إطلاق نار كثيف في المحطة. نظرت من النافذة المكسورة إلى خارج المحطة، حيث أنها وسط الزراعات، فلمحت رجالا ذوي لحى طويلة -إهمالا وليس التزاما- يحملون أسلحة أوتوماتيكية، ويطلقون النار بشكل عشوائي -أو هذا ما تبادر إلى ذهني- فانبطح الركاب كلهم على أرضية القطار فحذوت حذوهم. استمر إطلاق النار ما يقارب العشر دقائق مرت كأنها عشر دهور، بعدها أحسست بشيء لزج بين أصابعي، رفعتها فإذا هي حمراء قانية يسيل منها الدم الذي ملأ أسفل المقعد وكوّن بركة صغيرة. فتشت نفسي جيدا، لم أجد أثرا لجرح أو حتى كدمة، لكنني لمحت شخصا تحت المقعد المقابل يسيل منه الدم دون أن يشعر هو بذلك، إلى أن نبهته فإذا رصاصة قد اخترقت كتفه ولم يشعر بها في خضم الرعب الذي سيطر على الركاب أجمعين، لكنه ما إن انتبه لها حتى صرخ وفقد الوعي.

مما زاد الأسى والقلق، أن القطار يقف في العادة خمس دقائق أو حتى عشر، لكن قطارنا ظل حبيس الرصيف ما يقارب الثلاث ساعات، وليس على الرصيف من يُسأل كأنها محطة الأشباح. بعدها تحرك القطار فتنفسنا الصعداء.

وصلنا إلى محطة دشنا فتجمهر علينا الناس يسألوننا "ما الخبر؟"، ونحن بدورنا نسألهم؛ لأننا لم نعرف شيئا؛ حيث ظللنا منبطحين إلى دشنا.

انتبهت لنفسي، فإذا بي قد فقدت محفظتي، وبها الخمسين قرشا اليتيمة، هي كل مصروفي ومواصلاتي إلى البلدة. وحرت في أمري ماذا أنا فاعل. تذكرت أن أخانا سيد توفيق يقيم في دشنا للدراسة هو وأخينا حسام أبو القاسم، فتوجهت إلى غرفتهم. وجدت سيدا فاقترضت منه عشرة قروش لأتمكن من العودة، فأعطانيها عن طيب خاطر -لم يستردها حتى الآن. وصلت إلى المعادي -معادي دشنا إذ أن في كل بلدة على النيل معادي- وكان المساء قد حل، فلم أجد أحدا ليعبر بي النيل إلى الضفة الأخرى. بعد محاولات مضنية مع أحد أصحاب الزوارق الصغيرة الذي يطلق عليه (الزَّمُكّ)، وافق بعد إلحاح -مع وعدٍ مني بزيادة الأجرة- أن يعبر بي النيل إلى الضفة الأخرى، وعبرنا، وبالطبع ليس هناك من وسيلة للانتقال إلى البلدة على الضفة الأخرى؛ فلقد أصبح الوقت ليلا، وكل سيارة قد آوت إلى مرآبها. هيأت نفسي معنويا لقطع المسافة الطويلة سيرا على الأقدام، وتبلغ حوالي ستة كيلومترات، بدت وكأنها ستون. اتخذت لنفسي عصا أتقي بها عقور الكلاب، الذين كنت أستفزهم كلما مررت بهم ليملأوا الليل بعوائهم، فقط لأكسر حدة الصمت المخيف في الطريق الطويل المظلم، وسط زراعات القصب التي تتمايل مع الأشجار كلما حركها الهواء البارد في الظلام كأنها رؤوس الشياطين. قرأت خلالها كل ما كنت أحفظ من القرآن الكريم والمأثورات.

وسرت وحدي طويلا تكاد قدماي لا تلامسان الأرض فرقا ورعبا، تهزني أنفاسي، وتخيفني لفتاتي بحق وحقيق، وليس كما كان يقول شاعرنا الرقيق كامل الشناوي، إلى أن وصلت البيت قبيل الفجر بقليل.

كان السرير أول ما لاقيته فرحا.

محمد الدشناوي

كان العم محمد طويل القامة رشيق القد، أسمر البشرة حسن الطلعة، فيه رقة وظرف أو بالأحرى ديبلوماسية يحسده عليها أرباب وزارة الخارجية. كان هذا الرجل من دشنا، وقد استوطن قريتنا بسبب عمله في المستشفى، وقد حاز فضائل كثيرة ، فكأنما قد حازها لنفسه دونا عن قاطنيها. ولربما تُغفر زلات أهل دشنا إكراما لهذا الرجل. كان يعامل الصغار بحنو بالغ، والكبار باحترام كبير، وكان أهل البلد جميعا يوقرونه ويحفظون له الود. ولأنه كان مسئولا عن تسجيل المواليد في المستشفى، فقد كان يعرف كافة أهالي البلدة عن ظهر قلب، ومن كان يدخل المستشفى من أهل البلد لعلة ما، فقد كان يقوم معه بالواجب. وكان مقبولا من الأطباء المقيمين في المستشفى، بل قل إن سلطته كانت تتجاوزهم أحيانا عن رضا منهم؛ إذ لم يجرؤ أحد من موظفي المستشفى على مخالفته، وكنا ونحن صغار ندخل المستشفى لنقطف بعضا من زهورها خلسة، مطمئنين في قرارة أنفسنا لوجود العم محمد إذا حدث وضبطنا أحدهم، وكثيرا ما كان يحدث. كانت المستشفى مثالا في النظافة وحسن التنسيق كمستشفيات أوروبا، أقيمت على مساحة واسعة تضاهي مستشفى البندر أو أكبر، تطالعك أحواض الزهور المنسقة بعناية بعد أن تلج مدخلها الرئيس، ورائحة الورد البلدي التي تستقبلك لدى الدخول وتعطر جنباتها، والتي كانت دائما تغرينا بقطفها والهروب بالغنيمة من فتحات السياج الحديدي الأنيق، والتي كانت تسمح لرؤوسنا الصغيرة بالانزلاق من بينها قبل أن يمسك بنا العم جرفي، الذي

كان كعامة أهل البلد قاسيا من الخارج فقط ولكنه طيب القلب، ويفلتنا بعد التوبيخ المعتاد أو تدخل العم محمد.

كان غرامي بالزهور شديدا لدرجة أنني كنت أصحو مبكرا بعد الفجر رأسا لقطفها من المستشفى والهروب قبل وصول الموظفين إليها.

كان تصميم المستشفى رائعا على شكل حرف H، بحديقة أمامية وحديقة خلفية، ومبانيها لا تعلو إلا طابقين فقط.

طالتها فيما بعد يد الإهمال، واختفت أحواض الزهور، وملأت القمامة نواحيها، وتسلقت المياه الجوفية جدرانها كأنها أفاع لونها مخيف ورائحتها تعبق المكان، بعد أن كانت تغمرها روائح الزهور، وكان مرآها يضفي عليها البهاء.

دشنا

ترى ما الذي يحبب إلينا الأماكن والشوارع والبلدان أو يبغضها؟ هل فقط مجرد الحنين إلى الماضي حتى وإن كان مريرا؟

لم أحب دشنا قط -ولكني أحب أهلها؛ ففيهم أفاضل وعلماء ونسبا وصهرا- لكن دشنا حباها الله بموقع لم أر مثله على قدر تطوافي في الدنيا، ففيها كل ما يتمنى المرء أن يجده في بلد، ولها تاريخ عريق؛ إذ حدثت فيها موقعة دامية ضد الفرنسيين أيام الحملة الفرنسية على مصر، شارك فيها المماليك وأهالي دشنا وأبو مناع، وكثير من أهل الحجاز الذين عبروا البحر الأحمر لنصرة المصريين ضد الإفرنج، ومات منهم الكثير في هذه المعركة. موقعها الساحر على شاطئ النيل الشرقي على ربوة عالية، إذ تعلو على النيل ما يقارب العشرة أمتار وليس لها شاطئ؛ إذ أن ضفة النيل تنحدر منها بزاوية قائمة كما لو كانت قد قطعت بسكين حاد أو أن عملاقا هشمها بأنيابه، مما جعلها تشرف على النيل من عل، وتمتد أمامها على الضفة الأخرى الحقول المنبسطة والخضرة إلى مد البصر كأجمل ما يكون إبداع الخالق. تغمرها الرياح الباردة العابرة فوق النيل، فكأنها يد لطيفة تمر على شعر غادة حسناء. لكن بمجرد الصعود من ضفة النيل إلى الشارع الموازي له، حتى تفاجأ برائحة القمامة النفاذة المؤلمة كما لو كانت نصلا حادا يخترق الخياشيم إلى مراكز الحس تكاد تفقدك الوعي، ومرأى الخنازير البرية المفزع ترتع في أكوام القمامة المنتشرة بطول (كورنيش الخنازير)، مثل خليج الخنازير المشهور في كوبا. وإذا دلفتَ بعدها إلى داخل المدينة، ترى الأزقة والحارات التي شقتها يد العشوائية

وعشش فيها الإهمال. كانت دشنا تمثل لنا فيما سبق السلطة والإدارة وبعض التجارة، فمن ذهب إليها كان يذهب مضطرا. لكن بعد انتشار وسائل المواصلات والوفرة النسبية لدى الناس، استعاضوا عنها بقنا ونجع حمادي في التجارة، وبإنشاء مركز الوقف انقطعت تقريبا صلة الناس بسلطة دشنا.

تغيرت الآن دشنا إلى الأفضل، واختفت قطعان الخنازير، لكن مازالت لم تحصل بعدُ على فوائد موقعها الفريد على النيل. وأظن أن فرعون عندما قال "وهذه الأنهار تجري من تحتي" [(٥١) الزخرف]، كان لدشنا من قوله نصيب.

هذي الطبيعة قف بنا يا ساري ⁂ حتى أريك بديع صنع الباري
شبهتها بلقيس فوق سريرها ⁂ في نضرة ومواكب وجواري
ولقد تمر على الغدير تخاله ⁂ والنبت مرآة زهت بإطار
حلو التسلسل موجه وخريره ⁂ كأنامل مرت على أوتار
- أحمد شوقي

نظرية النسبية

قرأت مقالة لأحد الكتاب عن نظرية النسبية شوقتني إلى معرفتها، وعلمت أن من كانوا يفهمونها في العالم يومئذ عشرة فقط، كان منهم اثنان في مصر: الدكتور مصطفى مشرفة من الناحية العلمية، والدكتور عبد الرحمن بدوي من الناحية الفلسفية. فسولت لي نفسي -وكثيرا ما توردني موارد ليس لها مصادر- أن أقرأ عنها لأتيه بما سوف أعلمه من شأنها على أقراني ومجالسيّ، ولم يتيسر لي بعدها أن أجد شيئا عنها. وحدث أثناء تجولي في شارع المتنبي في بغداد ذات أصيل، أن وقع بصري على كتاب اسمه (ألف باء النسبية) لمؤلفه (برتراند راسل)، ولما كان عنوان الكتاب مغريا، فقد كلفت نفسي شططا لم أتبينه إلا بعد أن اشتريت الكتاب، وانزويت لأقرأه. وإذا بمؤلفه يذكر في البداية أن علينا أن ننسى كل ما تعلمناه عن قوانين الفيزياء وكل قوانين نيوتن حتى نستطيع فهم النظرية. وكلما توغلت في القراءة ازداد شعوري بأنني قد دخلت في ثقب دودي لا نهاية له. لم أخرج من الكتاب بعد تكرار قراءته لأكثر من عشر مرات، سوى بالقشور من الأمثلة التي يضربها المؤلف لشرح الأفكار الأصلية للنظرية، والتي استعصت على الفهم. ولمّا كان فيها بعضا من المعادلات الرياضية، وكثيرا من الشخبطة التي بدت لي كأعمال السحرة والمشعبذين، فقد تأبطت الكتاب إلى صديقي المرحوم ناجي فؤاد، وهو من هو علما بالرياضيات. مكث عنده الكتاب شهرا، وقال عندما رده إلي: "لم أفهم شيئا من تلك المعادلات ولا من الكتاب". ساعتها رُدت إلي روحي، وعادت الثقة في نفسي، بعد أن اتهمتها بالقصور.

المرأة النكدية

ليس هناك امرأة إلا وتعشق النكد والحزن إلا فيما ندر، فإن لم تجد من تنكّد عليه انقلبت على نفسها تذيقها ألوان الأسى. الحزن بالنسبة إلى المرأة كماء المطر، يغسل النفس مما علق بها من ألوان السعادة والفرح. وهي لا تشعر بالسعادة الغامرة إلا إذا كانت غِبّ حزن عميق. وهي لا تقوى على احتمال السعادة إلا لفترات قصيرة، لابد أن تتخللها لحظات من الأسى والحزن. قال سقراط لأحد تلاميذه: "تزوج، فإن كانت طيبة عشتَ سعيدا، وإن كانت نكدية أصبحت فيلسوفا"، وكان هو كذلك!

السعادة

متى تشعر بالتعاسة؟

عندما تضبط نفسك متلبسا بالسعادة.

***

عيون الروح

هل صحيح أن العيون نافذة على الروح؟ نعم، لكن بعض العيون صماء جامدة لا تستشف من خلالها شيئا. وبعضها شفاف رائق، وأحلاها المُوارِب، وخيرها الحيي.

ناصر

هو وكل من ينتمي إلى قبيلته كريم الشمائل مع اختلاف الدرجات، لكن ناصر فاقهم طرا، وذلك أنه قد يجود بكل ما تملك يده إذا وجد صاحب حاجة. كان ينفق معظم راتبه على العزائم والسهرات البريئة التي يقيمها لأصدقائه ومعارفه، وكان جل أصدقائه من المصريين الفضلاء. هو يحب مصر حبا جما، لم يُتَح لي أن أرى أحدا غير مصري يحبها مثل هذا الرجل، بالرغم من أنه تعرض لمقالب مالية مؤلمة من بعض المصريين، إلا أنه كان يلتمس لهم الأعذار، ويتحمل سخافات البعض منهم. حدث ذات مرة أن اجتمعنا في بيته على مأدبة أقامها لمناسبة ما بعد صلاة العشاء، وكان الجمع حاشدا مصريين وغيرهم، وامتدت جلسة السمر من بعد العشاء إلى أن أوشك الليل أن ينتصف، وتصادف ذلك مع زيارة للرئيس مبارك إلى المدينة المنورة في أواسط التسعينيات، ومباحثات بينه وبين الملك فهد وأمير قطر، وبالطبع تطرق الحديث إلى هذه الزيارة، فانبرى أحد الحاضرين قائلا: "لعل مبارك ذهب إلى السعودية لأن الشيك تأخر عليه"، وكان لهذه الكلمة وقع القنبلة في وجوه الحاضرين مصريين وغيرهم، والتهبت الجلسة، وقبل أن يرد عليه أيا من المصريين أو يتفوه أحدنا بكلمة، استأذن هو من المصريين أن يلزموا الصمت قليلا، ثم قال له: "يا خوي، لئن كان فعلا جاء يطلب الشيك، فهذا بعض حقهم علينا"، وقص كثيرا من الروايات التي كان هو وصاحبنا بطليها في طفولتهم. لما قال ذلك تكهرب الجو أكثر، وأصبح المصريين أكثر تعرضا للإحراج بالرغم من أن ناصرا أنصفهم، لكنه أحرج الرجل حرجا بالغا؛ ولأن الجلسة كان

فيها الكثير من الأفاضل الذين أيدوا ناصرا في قوله، فقمت بتغيير موضوع الحديث حفظا لماء الوجوه.

يزور ناصر مصر مرتين كل عام على الأقل، وله أصدقاء من كافة طبقات المجتمع، ويقوم بمساعدة كثير من ذوي الحاجة، ويحتفظ بعلاقات طيبة معهم. حتى أنه زارها أيام الفوضى الأمنية بعد ثورة يناير، وعاد يخبر الناس أن مصر آمنة والأسعار على حالها.

يعشق المرح وخفة الروح، ويتمتع بالكثير منهما. يحبه أهله وعشيرته وكل من عرفه، لا يتوانى عن خدمة الناس حتى من لا يعرفهم معرفة وثيقة.

باختصار، تحب لأجله كل آله، بل لا أبالغ إذا قلت كل الحجازيين.

الدكتور محمد حسين نوح

لو لم يكن طبيبا لكان أديبا، وساخرا أيضا.

لكن هل يمنع الطب من الأدب؟ أو يقلل منه؟ كلا؛ فقد كان الدكتور إبراهيم ناجي وما زال يزحزح الأفئدة من أماكنها بقصائده المفعمة بالعواطف والأحاسيس الرقيقة، وغيره كثير، لكن الوظيفة الحكومية تمنع؛ فصاحبنا تقلب في معظم مناصب الصحة، ومقالبها أيضا؛ فقد كان مديرا لمستشفى قنا المركزي، وكانت إدارته لها ممتازة بشهادة العدول، ولعبت الأهواء بذوي الإدارة فنقلوه منها. إذا تحدث تود لو أنه لا يتوقف، وعندما يسكت ليلتقط أنفاسه تحب أن تستحثه ليكمل. لا ينجو أحد كائنا من كان من تعليقاته ولذعات لسانه حتى أقرب المقربين له، ويغفرونها له؛ لأنه بكل بساطة صادق فيها.

محمود أحمد صالح

طويل القامة أبيض البشرة، هادئ النبرة، لم أره ينهر أحدا قط ولا يوبخ عاملا لديه. كان من أرباب الأراضي الواسعة، يهتم بكل جديد في مجال الزراعة، وخصوصا المحاصيل الغريبة والجديدة على البلد. كان أول من أدخل الميكنة الزراعية في مركز الوقف، إن لم يكن في محافظة قنا كلها على حد علمي، وكان جرارا زراعيا ضخما يربض على جنزير حديد، كانوا يطلقون عليه اسم (بابور النار). أنا لم أر هذا الجرار يدور قط أو يتحرك من المكان الذي رأيته فيه أول مرة، بل كان جاثما ككومة حديد صدئة تحت شجرة اللبخ العتيقة، وكنا ونحن صغار نلعب فيه وحوله متظاهرين بقيادته. ظل هذا الجرار جاثما في هذا المكان فترة طويلة دون أن يوافق على بيعه كخردة حتى وفاته، إلى أن اختفى الجرار ذات يوم.

كان هذا الرجل يهوى الخيل، وكان لديه حصان أبيض كان يعيره لأهل البلد في الأفراح لتمتطيه العروس ليلة زفافها، قبل أن تنتشر السيارات الخاصة في البلاد، وكان يقدم هذه الخدمة مجانا لأهل البلد.

لولعه الشديد بكل جديد في الزراعة، كان له أصدقاء في بلاد كثيرة، وبلغة هذه الأيام كان يحب المؤتمرات العلمية، يشتري الصحيفة كل يوم ويجلس ليتصفحها على دكة قديمة تحت اللبخة. كان يمارس رياضة المشي يوميا، لم يكن يطمح في أي دور اجتماعي أو سياسي في البلد، بالرغم من توقير الناس له، ولم يك يتدخل في مشاكل الناس، بل كان ينأى بنفسه عنها. رحمه الله رحمة واسعة.

المدبّ

ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، متماسك الأعضاء مشدود العضلات، ذو وجنات نافرة وأنف ناتئ وذقن مقوس إلى أعلى، كأنما كانت هذه الملامح في الأصل عظاما ثم تحورت لتؤدي وظائف أخرى. كان أحد ملاحي الفلوكة التي تعبر النيل في معادي دشنا، واشتهر باسم (المدبّ) حتى نسي الناس اسمه الأصلي بمن فيهم أنا، وبما أن لكلٍ من اسمه نصيب، فقد كان هذا الرجل ينتقي كلماته من محجر الزلط، لا يلقي بالا إلى من يخاطب وزيرا كان أو خفيرا، كبيرا أو صغيرا؛ فالكل لديه سواء. كان يقوم بتحميل بضاعة العابرين في الفلوكة، ويلقيها في قاعها لتعبر إلى الضفة الأخرى، ومن ثم ينقلها لهم إلى البر الثاني. ذات يوم كان أحد ضباط الشرطة يعبر النهر برفقة مطلوبين إلى مركز دشنا، وكان المدب يرفع أجولة ملأى بالغلال من الشاطئ إلى الفلوكة، وكانت الحمولة ثقيلة على صاحبنا، فألقاها دون أن ينظر إلى موطئ قدمه، فسقط الجوال على ساق الضابط، الذي توجع وصاح فيه: "انت يا بني آدم!!"

فرد عليه مزمجرا: "اوعى تغلط!"

فقال الضابط: "انت حمار!؟"

فرد المدبّ: "غصبن عنك".

وانفجر العابرون في الضحك بمن فيهم الضابط المصاب.

ميناء العقارب والأفاعي

شاءت الأقدار أن أشحن سيارتي من جدة إلى ميناء سفاجا كرحلة مؤقتة (تريبتك)، وليتها ما كانت؛ إذ وصلت السيارة يوم جمعة، ومع أن المعتاد في الموانئ والمطارات أنها تعمل حتى أيام العطلات، إلا ميناء سفاجا؛ فهو يعمل يوم الجمعة بربع طاقته وكامل جبايته؛ لأنه في حين تم شحن السيارة من ميناء جدة في مدة لم تتجاوز الساعة بكافة الإجراءات بدون مبالغة، فقد استغرقت إجراءات استلام السيارة في ميناء سفاجا المكعبر ستة وثلاثون ساعة كاملة، قضيتها في دهاليز الروتين المتعمد لامتصاص الغلة من العائدين، وليتها تدخل خزانة الدولة، بل تدخل جيوب الموظفين الخاوية باستمرار. بدأت الإجراءات منذ وصولي إلى بوابة الميناء، ولم يسمح ضابط الأمن بدخولنا إلا بعد انتظار ست ساعات كاملة دون سبب، وبعد القيام بكافة الإجراءات اللازمة لتصريح الدخول التي احتيج فيها إلى تصوير كافة الأوراق الثبوتية لدخول الميناء، لم يتبق إلا صور من شهادات الميلاد والتطعيم ليكون ضابط الميناء حصل على كافة الشهادات الصادرة من الدولة في حق هذا المواطن الذي ارتكب جريمة شحن سيارته إلى بلده لينتفع بها فترة إجازته في مصر. بعد الدخول إلى الميناء، ظهر أن ما مضى كان مسح زور الروتين فقط؛ إذ استلَمنا الزبانية من كل فج وصوب بدءا من موظف الجمارك وإجراءاته التي لا تنتهي، ثم موظف التريبتيك، ثم موظف المرور، ثم مخبر المفرقعات، الذي طلب صعود السيارة إلى الكشف عليها، ومن ثم إدخال الكلب هول ليفتش عن المفرقعات بها، ولما كنت لا أحب الكلاب، فقد أشار لي المخبر إشارة ذات مغزى، فألصقت العشرين جنيها بيده، فأخذها متأففا وسحب الكلب

ومضى دون إدخاله السيارة. لكل إجراء مما سبق رسوما خاصة، ورسوما رسمية، وهذه الرسوم لا تقبل القسمة أبدا على عدد صحيح، باختصار (انس الباقي). لا يهم، لكن المشكلة أن الموظفين المختصين بجباية الرسوم لا يأخذونها مرة واحدة، بل كل إجراء أو ورقة لها رسوم من نفس العينة. لما حسبت ما نسيته من باقٍ، كان تقريبا يساوي الرسوم التي دخلت خزينة الدولة. خلال هذه المعركة حدثت واقعة آلمتني وأثارت اشمئزازي، ذلك أنه كان معنا طالب من دولة خليجية يدرس في مصر، ولما قدم أوراقه للموظف رفضها قائلا: "دفتر التربتيك الذي معك غير معتمد لدينا"، ولما نبهه الطالب إلى أنه اجتاز به حدود دولتين دون اعتراض، قال له بلهجة آمرة فظة: "يا أستاذ هذا الدفتر غير معتمد لدينا!"

فسأله: "وما العمل؟" قال له: "يجب عليك إعادة شحن السيارة من الدولة التي أتت منها، واستبدال الدفتر بأحد الدفاتر المعتمدة لدينا" وسمى له كافة الدفاتر عدا الذي مع الطالب!

تغير وجه الطالب ولم يدر ماذا يفعل، وانا أراقب الموقف. فلما وجد الموظف أن الطبخة قد استوت، قال له: "هناك حل"، فانفرجت أسارير الولد في انتظار الحل.

فقال الموظف: "تدفع غرامة! لكن المشكلة أن اليوم جمعة وموظف الخزينة غير موجود" فقال الطالب: "وما الحل؟" رد عليه الموظف: "ممكن تترك الغرامة معي وأنهي لك الإجراءات، وعند سفرك تحصل على إيصال الغرامة"

فطن الطالب لهذه الحبكة البايخة، وابتسم ابتسامة ذات معاني وقال: "موافق بس خلصني". وكان للموظف ما أراد.

انتحيت جانبا بهذا الطالب عارضا عليه الشهادة في حال تقديم شكوى، فقال: "لا يهم.. المهم أخلص".

واستمرت الإجراءات من نفس النوعية، إلى أن انقضت ست وثلاثين ساعة كاملة، بين اليقظة والمنام، وقصص المسافرين الذين يفقدون كثيرا من مقتنياتهم في السيارات بسبب دخولها الميناء يوم جمعة.

بغداد

في إحدى أمسيات بغداد، تعرفت على أحد الطيارين المتقاعدين، والذي كان يدير محلا لقطع الغيار يزجي به أوقات فراغه، وكنت أنتابه بين الحين والأخر، نتحدث في الثقافة والتاريخ ونادرا في السياسة، وكان هذا المحل فسيحا من الداخل، يضع في أحد جوانبه طاولة صغيرة وثلاثة مقاعد فوتيه يتناول إفطاره عليها ويستضيف زواره وأصدقائه عليها. وإذ نحن جلوس عنده إحدى العصاري، دخلت علينا فتاة ذات بياض شاهق وأسود حالك وأصفر فاقع -طبعا البياض شاهق وليس ناصعا بالرغم من أهل اللغة لأنك تشهق عند مرآها- ويزين فوديها الشعر الأصفر اللامع، ذات تقاطيع مليحة وقوام سمهري -إرضاءَ لأهل اللغة- ورداء أسودا أنيقا، ونظرة حالمة، وقد سبقها أريجها إلينا، تبحث عن قطعة غيار لسيارتها، فإذا بهذا الشيخ الوقور يقفز من مقعده كمن لدغته حية يبحث لها بكل جدية عن القطعة المطلوبة، ولما يئس من وجودها تبرع أن يجلبها لها من وسط المدينة باكرا. في اليوم التالي ذهبت في الموعد المضروب لها ترقبا لتصرفاته عند رؤيتها، وللمفاجأة وجدت زوجته عنده، وكانت سيدة وقور أنيقة ارستقراطية المنشأ، لبقة وأديبة أيضا، وكانت تتدخل كثيرا في الحديث بيني وبينه عندما يخرج الحديث إلى السياسة، لتردنا إلى الجادة مرة أخرى. وجدتْ صاحبنا يختلق العذر تلو العذر لكي تغادرنا، ويبدو أنها فطنت لذلك فلم تبرح المكان. وما هي إلا برهة وأتت الفتاة، فإذا صاحبنا يجلس مكانه ويكلمها بكل جدية دون أن يتحرك أو يطرف له جفن كما فعل البارحة، لكنه لدهائه أعطاها موعدا آخر متعللا بعدم وجود القطعة لدى المورّد بالأمس. غادرت الفتاة ثم

انتهرته زوجته قائلة: "أنت لم تبرح المنزل بالأمس، واليوم من المنزل إلى هنا، فلم كذبت على الفتاة!؟" فذكر أنه استعلم بالهاتف، فقالت: "ولِم لَم تنصحها بمحل آخر قد تجد ضالتها عنده!؟". وجدت أن الحديث سوف يتشعب ويتشظى، فتسللت خارجا قبل أن يرتفع الصياح.

***

الاستهجان والمبايعة

كان حزب البعث في العراق يجند كثيرا من عامة المصريين في صفوفه، ويحضرون المؤتمرات والفعاليات والمظاهرات التي لا تنتهي؛ مرة مظاهرة لاستهجان قرارات أمريكا، خصوصا بعد فضيحة إيران (كونترا جيت)، ومرات كثيرة لمبايعة السيد القائد المهيب الركن. وكان أحد المصريين من ذوي الدم الخفيف والثقافة الضحلة منتميا للحزب، ويحلو له أن يسرد علينا ما يدور في اجتماعاتهم ومظاهراتهم من طرائف. وذات مظاهرة كانت منظمة لمبايعة السيد الرئيس على ولاية جديدة، وقد احتشدت الجماهير يرفعون صور القائد وعلت هتافاتهم، إذ اختلط الأمر على صاحبنا وظنّها مظاهرة استهجان، فما كان منه إلا أن رفع عقيرته بشعارات الاستهجان التي يحفظها عن ظهر قلب، فأغشي على مسئول الحزب في منطقته، وظنّ أن هذا الرجل مدسوسا عليه؛ إذ قد يؤدي هذا الفعل إلى إعدامه. ولما أفاق قفز يعدو صوب صاحبنا يغلق فاه عن أن يتفوه بأي كلمة أخرى، وحمد الله أن صياح الجماهير حالت دون أن ينتبه الناس لما يقول، ومرت بسلام. ثم أرسله في مأمورية طويلة إلى منطقة أخرى قبل أن يقع في ما لا يحمد عقباه.

المخانة

لم تكن هناك مقاه في بلدتنا بالمعنى المعروف، وإنما كانت زاوية صغيرة مبنية بالطوب اللبن، مسقوفة بجريد النخل وسعفه، مغطاة بالطين، وكانت مشروباتها تقتصر على الشاي والقهوة والحلبة الحصى واليسون (اليانسون)، وكانت تسمى مخانة (المخانة كلمة من أصل عثماني). يفترش روادها الحصر على الأرض المرشوشة بالماء ويلعبون (الطاولة) النرد و(الضُمَنة) الدومينو على المشروبات في عصاري الصيف. أدركت هذه المخانة في مقتبل أيامي وأواخر أيامها، فما هي إلا فترة بسيطة حتى تحولت إلى مقهى. لست أدري من أول من غرس مقهى في البلد بالضبط.

قبيل وصول الكهرباء إلى بلدتنا، كانت تضاء الشوارع من قبل المجلس القروي. كان عمود الإنارة من الخشب العتيق القاسي، في أعلاه فانوس يشبه فانوس علاء الدين، يأتي العامل قبيل المغرب من كل يوم وفي يده مانيفيللا يديرها في صندوق حديدي أسفل العامود، فتصدر صوتا كأنه مواء القطط أو فحيح الثعابين، ليهبط إليه الفانوس، ثم يعمره بالجاز ويشعله من علبة الثقاب، ثم يرفعه مرة أخرى ويمضي لطيته. لم يكن هذا الفانوس ينير إلا بقعة صغيرة من الشارع بنور أحمر باهت، تبدو من بعيد كأنها عيون الشياطين. بُعَيّد وصول الكهرباء إلى قريتنا في نهاية الستينيات، لم يك التليفزيون معروفا إلا في مقهيين فقط والجمعية الزراعية، وكانت الفرجة على التليفزيون مع المشروبات. يجلس الأطفال في صفوف على الحصر القديمة المتآكلة، التي تبدو من فراغاتها الأرضية الترابية المتصلبة من كثرة رش الماء، أمام التليفزيون مباشرة. ويجلس

الكبار على أسرّة من جريد النخل خلف صفوف الأطفال، أما صاحب الفخامة التليفزيون نفسه، فكان داخل صندوق خشبي كبير يشبه قطعة الموبيليا، يرتكز على سيقان خشبية انتفشت أسافلها من رش الماء، له شاشة زيتية غامقة اللون تقترب من السواد، محدبة تميل إلى الخارج تحسبها سوف تسقط في حجر الجالس قبالتها. كنا نتحلق حوله قبل موعد السهرة بفترة طويلة لنحجز موقعا مميزا قبالته، في انتظار أن يقوم العم محمد بتشغيله، وتغمرنا السعادة بمجرد اقترابه من الصندوق الضخم، ومن ثم يعرك أذنيه إيذانا ببدء السهرة، وننتظر إلى أن يسخن التليفزيون؛ فقد كانت التليفزيونات في ذاك الزمان تعتمد على الصمامات التي تشبه مصباح الإضاءة الكبير في حجم زجاجة اللبن -قبل اختراع الترانزستور وقبل الدوائر المتكاملة- حتى تضيء تلك الصمامات، ثم يبدأ النور في الظهور على استحياء في وسط الشاشة المظلمة، رويدا رويدا حتى تكتمل الصورة التي أول ما تبدو تكون كالأطياف أو الأشباح، ثم تتضح الصورة أكثر فأكثر كلما ازدادت سخونة الجهاز.

كانت زينب الحكيم تقرأ نشرة الأخبار بصوتها الساحر الأنيق، وكان أيامها كثير من نخبة المذيعين والمذيعات مثل طارق حبيب وهمت مصطفى ثم أحمد سمير ومحمود سلطان، من الجيل الذي تلاهم أيام الرئيس السادات، ومن البرامج النادي الدولي الذي كان يقدمه سمير صبري، الذي توقف فجأة بعد استضافة سمير لإحدى الراقصات ولما سألها عن مسقط رأسها قالت من المنوفية، فرد سمير على البديهة: "يعني بلديات الريس"!!

وكان هناك برنامج اسمه (السينما والحرب)، كان يقدم أفلاما من روائع السينما العالمية التي عالجت موضوع الحرب. وبعد اتفاقية السلام أمسى اسمه (نادي السينما)، وأمست تقدمه المذيعة الراقية درية شرف الدين.

لم تك تخلو ليلة واحدة من المناوشات بين النادل والرواد، للمغالطة في الحساب أو التأخر في طلب المشروب، إلى أن توشك السهرة على الانتهاء، وهو ما كان يزعج العم الطيب محمد.

وتنوعت بعد ذلك المشروبات، وأضيفت أخرى جديدة مثل العنّاب والكاكاو.

الثقافة الجماهيرية

لست أدري إلى جهة كانت تتبع الشاحنة الكبيرة السوداء المقفلة الجوانب، التي كانت تتمايل يمنة ويسرة وتئن بصوت رتيب يتناغم مع حركة عجلاتها الضخمة كلما مرت بقريتنا. كانت تطوف القرى والنجوع لتعرض أفلاما تثقيفية مجانية لأهل الريف، أغلب الظن أنها كانت تتبع الثقافة الجماهيرية أو الإرشاد القومي، ما علينا. كانت هذه السيارة العجيبة الغامضة تأتي عند الجمعية الزراعية بعد العصر، ويقوم العم محمد بطلاء جدار الجمعية بالجير الأبيض كلما أتت هذه الشاحنة ليكون بمثابة الشاشة للفيلم الذي سوف يعرض عليها. كانت الأفلام من عينة الأفلام التعليمية للوقاية من الأمراض المتوطنة والعابرة والقاطنة والمارة وبنت السبيل، وتهدف إلى تعليم الناس العادات الصحية السليمة في إطار تمثيلي مشوق، أو على الأقل هذا ما بدا لنا في تلك الأيام الغابرة؛ لأن منظر السيارة وتجمع الناس للفرجة على السينما المتنقلة كانت في حد ذاتها متعة لأهل الريف، الذين يفتقدون إلى أدوات الترفيه، مثل السينما التي لم تكن موجودة إلا في عاصمة المحافظة في قنا، أو مركز نجع حمادي الذي تلمّس طريقه سريعا إلى مظاهر الرقي، بسبب وجود مصنع السكر القديم، وقد ترك العاملون الإنجليز أثرا فيه.

جمال أبو العلا

ليس لي ان أقول "فلان يدخل النار، وفلان يدخل الجنة" -معاذ الله- لكن إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل الصلاح فانظر إلى (أبو العلا)؛ ليس لكثرة صلاته ولا نوافله، إنما هو يقوم بفرائضه فقط، فهو كالأعرابي الذي أفلح وصدق؛ لكنه بار بأهله كما هو بار بأصدقائه، ويتحمل سخافاتهم على كثرة تكرارها. وعلى طول معرفتي به ما سمعته قال (لا) قط لأحد. أوتي من سلامة النفس الكثير إذ خلت نفسه من الحسد والضغينة، وكم تعرض لمقالب مؤلمة تنقضي بعد برهة ولا يبقى في نفسه منها أثر، وما ينفك يتعرض لمثلها ومع ذلك لا يتوب عنها، وما أظنه يتوب بالرغم من ذاكرته الحديدية. هذا عن بعض محاسنه، أما عن مساوئه فحدث ولا حرج، لكنما الكتمان أولى.

كان صاحبنا يعمل مفتشا للتموين قبل أن يسافر للعمل في الخارج، وتعرض لموقف يوضح كيف يكبل الروتين مفاصل الدولة في مصر؛ إذ أن هناك قانونا يمنع صيد السمك الصغير حفاظا على الثروة السمكية، وكان صاحبنا عضوا في حملة تموينية تمر على الأسواق ليس إلا لبث الرعب في النفوس، وقام بالقبض على إحدي السيدات في السوق تبيع السمك في مشنة صغيرة، ولم يك في هذه المشنة إلا كيلو سمك وحيد، ولما فتح صاحبنا المشنة ورأى السمك كما رآه كل أفراد الحملة، لم يستطع التراجع عن إجراء محضر مخالفة، ومن ثم قضية لهذه السيدة المسكينة التي لم تكف عن الولولة والصراخ استعطافا واسترحاما للآذان الصماء لأفراد الحملة. إلى هنا والحدث عادي، لكن غير العادي أن يتم تحريز دليل

الجريمة ويحتفظ به مفتش التموين صاحب الموقعة لحين موعد نظر القضية. احتفظ به صاحبنا في ثلاجة بيته إلى موعد القضية، وتم الحكم بمصادرة كمية السمك، وبيع الكمية إلى أي جهة حكومية، وإيداع القيمة خزينة المحكمة!!

يا أرباب الألباب كيف يتم بيع سمك محظور اصطياده وبيعه بحكم القانون ثم يباع بحكم المحكمة!؟ ما علينا؛ فقد أصاب الحفاء صاحبنا من كثرة تردداه على الجمعيات التعاونية لتشتري السمك، أو على الأقل يعطونه ما يفيد استلامهم له ويورد هو من جيبه الثمن إلى خزينة المحكمة ليتخلص من هذا الكابوس، ولكنه جوبه بالرفض من الجميع، وليس الرفض فقط، فقد أصبح محلا للتهكم والسخرية. وقع اختيار صاحبنا على إحدى دور الأيتام، وذهب لملاقاة السيدة المديرة التي هشت وبشت لمجرد طرح الفكرة، ورحبت بصاحبنا أيما ترحيب، واستقبلته في مكتبها استقبال المظفرين، هذا بالطبع قبل أن تعرف الكمية والنوع، وكان رد الفعل بعد أن عرفت ما تعلمون.

***

حمل صاحبنا عصاه ورحل إلى بلد خليجي لطلب الرزق، وألقت به عصى النوى في إحدى الحواضر، وعمل في مكتب للخدمات العامة والتعقيب لدى الدوائر الحكومية، وطبعا ملأ صاحبنا جرابه من القصص والنوادر التي كان فيها بطلا أو مشاركا أو متفرجا، وفي كل الحالات يكون هو من يوقد نارها. كان لديه فرّاش باكستاني أتقن العربية كأحد أبنائها، وكان ذكيا لماحا سريع البديهة، له قدرة عجيبة في اقتناص الزبائن، ومن ثم

تقليبهم على ناره الهادئة ظهرا لبطن، ويتقاسم مع صاحبنا الغنيمة. ألقت المقادير بين أيديهم يوما هنديا فقد إقامته وجواز سفره، ولما كان صاحبنا لا يعرف اللسان الأوردي بالرغم من بقائه بين ظهرانيهم -وهم جل زبائنه- أكثر من عشرين سنة، إلا أنه لا يعرف من لغتهم شيئا، فأحال الهندي إلى الباكستاني واغتنمها الأخير فقال للهندي: "أولا: يجب عليك نشر إعلان في صحيفة يومية بفقدان الإقامة وجواز السفر، ثم نكمل باقي الإجراءات" وتقاضى منه مبلغا مقدما، وفي اليوم التالي نشر صاحبنا الإعلان في الجريدة، وغلب عليه دهاؤه فاشترى من الجريدة نسخًا بعدد الأفراد في الجواز والإقامة، ولما أتى الهندي قال له: "هاك الإعلانات بعدد النسخ" وحاسبه على كل نسخة من الجريدة كإعلان منفصل، بالرغم من أن النسخة مكررة. ولما نقده الهندي المبلغ متأففا، زاد أن طلب منه أيضا أتعابه الشخصية. وصديقنا الأول متواريا خلف مكتبه يكتم ضحكاته في صدره.

صديقنا هذا له حاسة أدبية رائقة، وكثيرا ما يكتب كلمات تظن أنك قرأتها من قبل، وخواطر تتشابه كثيرا مع ما يكتبه كبار الأدباء. ولو سلك في بداية حياته طريق الأدب لكان له منه أوفر النصيب، لكنه بالرغم من ذلك يمقت الكتب مقتا شديدا، ولا يطالع إلا الصحف لماما.

الشيخ سيد مرسي

كان أنيقا في ملبسه، يرتدي (الجلابية) البيضاء النظيفة، المكوية في وقت لم يكن في البلدة إلا كوّاء رِجْل وحيد اسمه العم خلف، وكان يكوي الجلباب الواحد بثلاثة قروش كاملة. كان الشيخ سيد يهتم بهندامه كثيرا كما يهتم بأخلاقه. كان لطيفا مع الجميع خصوصا الأطفال، وكان الأطفال يحبونه لذلك؛ إذ أن معظم أنداده كانوا ينهرون الأطفال كلما رأوهم يلعبون في الشارع، إلا هو. كان ربعة ليس بالطويل ولكنه أميل إلى القصر، ذا بشرة بيضاء صافية، يحتفظ بلحية أنيقة محددة تحديدا دقيقا غير طويلة. كان موظفا حكوميا في بلدة بعيدة، وكان يزور البلد على فترات. المهم هنا أنه كان متصوفا، لكنني لم أره يمارس الطقوس التي كان يمارسها مُدَّعو التصوف، ولم يكن مهذارا كمعظمهم، لكنه كان وقورا. اختطفه الموت في سن صغيرة، وقد عم الحزن أرجاء البلدة لوفاته، رحمه الله.

خطباء الأوقاف

كثير من خطباء الأوقاف تم تعيينهم ليملؤوا الفراغ الشاغر في المساجد دون اختبار أو تمحيص لقدرتهم على فن الخطابة، أو تملّكهم لناصية اللغة.

تجد بعضا منهم يقف على المنبر فقط ليؤنب الناس ويلهبهم بسياط من اللوم والتقريع والترهيب، ويتعالى عليهم كأنما لم يهد الله أحدا غيره، وفي القوم من هم أعلم وأتقى، وأنبل أخلاقا وأرقى. ولم يعلموا أن الرسول الكريم -صلوات الله عليه وآله وسلم- كان يستخدم من الألفاظ ما رقّ وقعه، ومن المعاني ما سَهُل فهمه، ولم يكن لعّانا وإنما كان هاديا، تقرأ خطبه فلكأنها غمست في بحار الرحمة وغشيت بنور البلاغة والفطنة، لا يسهب ولا يجتزئ. قد يقول قائل: "هذا هو الرسول، فأين نحن!؟" والرد بسيط وواضح: "نعم هذا هو القدوة، هذا هو الأسوة الذي يجب علينا أن نتأسى به، وأولى الناس بالاقتداء به هم خطباء المساجد، ومن يتصدون للوعظ والإرشاد وفي دخيلتهم أنهم أفضل حالا ممن يسمعونهم، ويقول الشيخ الغزالي رحمه الله: "يمشي الإنسان وعليه من ستر الله ما يحفظ ماء وجهه أمام الناس، ولو كشف الله ستره لسوّد الناس وجهه".

***

وصف الكتاب

أستاذنا الجاحظ وضع وصفًا للكتاب لم يسبقه إليه أحد، ولا أعتقد أن يضيف إليه أحد شيئا جديدا، وذلك بأسلوبه الرائق المرح الدقيق؛ وأعتقد أنه من الواجب تدريسه للناشئة؛ حتى يشبوا على حب القراءة والكتاب. يقول أستاذنا في مقدمة كتاب الحيوان:

"والكِتَابَ؛ نعم الذخر والعُقدة، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علمًا، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفًا، وإناءٌ شُحِن مُزَاحًا وجِدًّا؛ إِنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبانِ وائل، وإن شئت كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضَحكْتَ مِنْ نوادِرِهِ، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه، وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه، وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارّ، ومَنْ لكَ بطبيب أعرابيّ، وَمَنْ لَكَ برُومي هِنْدِيّ، وبفارسي يُونَانِيّ، وبقَدِيمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأوَّلَ والآخِر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسمين، والشِّكْلَ وخلافَه. وبعد: فمتى رأيتَ بستانًا يُحمَل في رُدْن، ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْرٍ، وناطقًا ينطِق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء. وَمَنْ لك بمؤنس لا ينام إلاّ بنومِك، ولا ينطق إلاّ بما تهوَى؛ آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحْفِظَ من الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعرِبين، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغال،

ومن العُميانِ قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تنقص، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم، والإرادَةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ لينة، فهي أقبلُ ما تكون للطبائع، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا، ولم تتفرّق قُواها، وكانت كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أنْ أعرِفَ الهَوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا

ومن كلامهم: التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقشِ في الحجر.

وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ لعيسى بن عمر: "اكتبْ شِعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليّ من الحفظ، لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طلبها ليلَته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم يُنشِدها الناسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلامًا بكلام.

ولا أعلَمُ جارًا أبرَّ، ولا خَليطًا أنصفَ، ولا رفيقًا أطوعَ، ولا معلِّمًا أخضعَ، ولا صاحبًا أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالًا وإبرامًا، ولا أحفَلَ أخلاقًا، ولا أقلَّ خلافًا وإجرامًا، ولا أقلَّ غيبةً، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرّفًا، ولا أقلَّ تصلُّفًا وتكلُّفًا، ولا أبعَدَ من مِراء، ولا أتْرَك لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب؛ ولا أعلَمُ قرينًا أحسنَ موَافاةً، ولا أعجَل مكافأة، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مؤونة، ولا شجرةً أطولَ عمرًا، ولا أجمعَ أمرًا، ولا أطيَبَ ثمرةً، ولا أقرَبَ مُجتَنى، ولا أسرَعَ إدراكًا، ولا أوجَدَ في كلّ إبّانٍ، من كتاب؛ ولا أعلَمُ نِتاجًا في حَدَاثة سنِّه وقُرْب ميلادِه، ورُخْص ثمنه، وإمكانِ وُجوده، يجمَعُ من التدابيرِ العجيبةَ والعلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة، ومِنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارِبِ الحكيمة، ومِنَ الإخبارِ

عن القرون الماضية، والبلادِ المتنازِحة، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتابُ. قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصلاة والسلام: "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*"، فَوَصَفَ نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنْ علَّمَ بالقَلم، كما وصف نفسَه بالكرَم، واعتدَّ بذلك في نعَمه العظام، وفي أياديه الجِسام، وقد قالوا: "القَلَمُ أحدُ اللسانَين"، وقالوا: "كلُّ مَنْ عَرَف النِّعمةَ في بَيان اللسانِ، كان بفضل النِّعمة في بيانِ القلم أعرَف"، ثمَّ جَعَلَ هذا الأمرَ قرآنًا، ثمَّ جعلَه في أوَّل التنزيل ومستَفْتَح الكتاب.

ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة، والحكم المخطوطة التي تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم، ولغلَب سُلطانُ النِّسيانِ سلطانَ الذكْر، ولَمَا كان للناس مفزعٌ إلى موضعِ استذكار، ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنَّ مقدار حفْظ الناسِ لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يَبلغ من ذلك مبلغًا مذكورًا ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محمودًا، ولو كُلِّفَ عامّةُ مَن يطلب العلمَ ويصطَنِع الكتب، ألاّ يزال حافظًا لفهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلِّفَ شططًا، ولَشَغله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أَولى.

ولذلك وضع اللّه عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوَّه بذِكره في المنْصب الشريف، حين قال "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ" فأقسَمَ بالقَلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعْدَ غايتِه، لكنْ لما أنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائِر الأماكن، وكانت الحاجَةُ إلى بيانِ اللسانِ حاجةً دائمة واكدة، وراهِنةً ثابِتة، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ القلم

أمرًا يكونُ في الغَيبة وعند النائبة، إلاَّ ما خُصَّت به الدواوين؛ فإنّ لسانَ القلم هناك أبسَطُ، وأثَرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدَّموا اللسانَ على القلم.

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقله، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوِجك إلى التجمّل له والتذمّم منه، ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبًّا، ووُروده خِمسًا، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك.

والكتابُ هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيق الذي لا يملُّكَ، والمستَمِيح الذي لا يستَرِيثُك، والجارُ الذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندَك بالملَق، ولا يعاملُك بالمكر، ولا يخدَعك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذِب. والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتاعَك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح نفسَك (جعلك واثقا بنفسك)، وَعمّر صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملوك، وعَرفتَ به في شهر، ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ من الغُرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوفِ بباب المكتسب بالتعليم، ومِن الجُلوس بين يَديْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقًا، وأكرمُ منه عِرْقًا، ومع السلامةِ من مجالَسَة الْبُغَضاء ومقارنةِ الأغبياء. والكتابُ هو الذي يُطيعُك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعُك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعتَرِيه كَلالُ السهرِ، وهو المعلِّمُ الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك، وإن قطعتَ عنه المادَّة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُزِلتَ لم يَدعْ طاعتَك، وإن هبَّتْ ريحُ أعادِيك لم

ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ منه متعلِّقًا بسبب أو معتصمًا بأدنى حبْل، كان لك فيه غنًى من غيره، ولم تَضْطَرَّك معه وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السوء، ولو لم يكن مِن فضْله عليك، وإحسانِه إليك، إلاّ منعُه لكَ من الجلوس على بابك، والنظرِ إلى المارَّةِ بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوقِ التي تَلزَم، ومن فُضولِ النظَر، ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيك، ومِن ملابسةِ صغارِ الناس، وحضورِ ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسِدة، وأخلاقهم الرديَّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصل، مع استفادةِ الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلاّ أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما أشبهَ اللعب، لقد كان على صاحبه أسبَغَ النعمةَ وأعظَمَ المِنَّة.

وقد علمنا أنَّ أفضلَ ما يقطع به الفُرّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلِهم، الكتاب.

أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب، وقال أبو عبيدة، قال المهلَّب لبنِيه في وصيّتِه: "يا بَني، لا تقوموا في الأسواقِ إلاّ على زَرَّادٍ أو وَرَّاق". وحدَّثني صديقٌ لي قال: "قرأتُ على شيخٍ شاميَ كتابًا فيه مِن مآثر غطفان فقال: ذهبَت المكارمُ إلاّ من الكتب".

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: "غَبَرتُ أربعين عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتكأت إلاّ والكتابُ موضوعٌ على صدري"

وقال ابن الجهْم: "إذا غشِيَني النعاس في غير وقتِ نوم -وبئس الشيءَ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة- قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتابًا من كتب

الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائِد، والأريحيَّة التي تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة، والذي يغشَى قلْبي من سرور الاستبانة وعزِّ التبيين".

وقال ابن الجهم: "إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه -فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقِهِ مخافَةَ استنفاده، وانقطاعِ المادَّة من قَلْبِه، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثير الورق، كثير العدد- فقد تَمَّ عيشي وكَمُلَ سروري".

وقال ابن داحة: "كان عبدُ اللّه بنُ عبدِ العزيز بنِ عبد اللّهِ بن عمر بن الخطَّاب، لا يجالسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبُرَةً من المقابر، وكان لا يكادُ يُرى إلَّا وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئِل عن ذلك، وعن نزولِه المقبُرة، فقال: لم أرَ أوْعظَ من قبر، ولا أمنَع من كتاب، ولا أسلَمَ من الوَحدة، فقيل له: قد جاء في الوَحدة ما جاء، فقال: ما أفسَدَها للجاهِل وأصلحها للعاقل!"

◄ الفهرست ►

صدر عن دار الفؤاد للنشر والتوزيع:

خفقات دامعة	رواية	رباب فؤاد
أماليا	رواية	ميرفت البلتاجي
شقلب أحوالك	رواية	وليد نبيه
رسم قلب	نبضات أدبية	كتاب جماعي
خيانة واي فاي	رواية	سلافه الشرقاوي
فابريكا	ديوان شعر	عبده نافع
اديني عقلك وامشي حافي	مقالات ساخرة	محمد أبو جاد الله
جرعة نيكوتين	مجموعة قصصية	محمد طارق
تحوت.. الإله المنتظر	رواية	كريم الشهاوي
الخروج من مصر الجديدة	رواية	إسلام محمد عيسى
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
ثورة محظورة النشر	رواية	محمد عبد الغفار